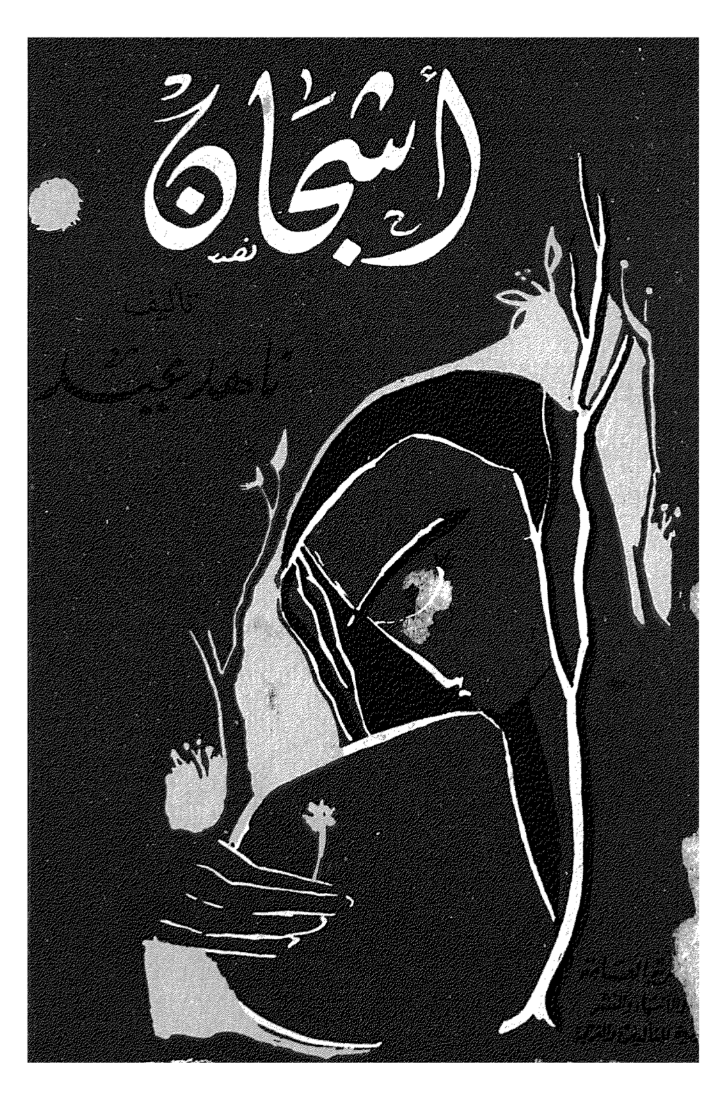



أشجان
نص
تأليف
ناهد عبيد



تأليف
ناهد عيد

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

— ١ —

حسنا لقد استطعت برغم الزحام الشديد على القطار أن اجلس فى مكانى المفضل .. هنا بجانب النافذة .. يجب أن أضع لحقيبة الكبرى فوق الرف حتى أستطيع أن أمـد قدمى الى الأمام .. على أن أضعها أنا بنفسى وأمرى الى الله ، فلا يوجد هنا أحد يبدو عليه أنه يريد مساعدتى فى رفعها ، فهذا الذى يجلس بجانبى رجل فى حوالى الخمسين ، على وجهه مسحة رجال الأعمال ، ما ان جلس حتى شرع يقلب بعصبية ظاهرة فى كتاب ضخم للقانون .. انه لا يشعر ولا يهتم بما يدور حوله فى القطار .. أما هذه المرأة السمينة التى تجلس أمامى فلابد وأن تكون حاملا بأكثر من طفل واحد ، فبطنها شديد الانتفاخ .. ما هذا ؟ .. هل جميع هؤلاء الأطفال أبناؤها ؟ .. مسـكين زوجها ، أستطيع أن أخمن أنه هو الذى يجلس فى الركن على اليسار ، يبدو أنه موظف أو عامل بسيط ، فبرغم أن حلته نظيفة فانها ولا شك قد مرت عليها سنون طويلة ، وحذاءه أيضا ! ان النعل يكاد ينفصل عن وجه الحذاء .. ان نظرات الزوج لزوجته تنم عن الغيظ الشديد والندم ، أما هى فانها تبادله بنظرات بلهاء



ليس لها معنى .. لقد نصحتنى أمى كثيرا ألا أنظر طويلا هكذا فى وجوه الناس ..

يا حبيبتى يا أمى ، لقد أوحشتنى كثيرا .. اننى لم أرها منذ حوالى ثمانية أشهر طوال .. انها أول مرة فى حياتى أفترق فيها عن أمى وأبى وأختى ، وعن بلدى « طنطا » .. قدمت الى القاهرة فى أوائل هذا العام لألتحق بكلية الآداب - ثمانية أشهر قضيتها فى هذه المدينة الكبيرة الجميلة غيرتنى كثيرا .. غيرت أفكارى وآرائى ومبادئى ، وغيرت نظرتى الى الحياة .. اننى لم أعد « أشجان » تلك الفتاة البسيطة الخجول التى كنتها قبل أن أدخل الى هذا العالم الجديد .. اننى الآن أشعر كأن هناك تيارين عنيفين يتنازعانى ، تيار العادات والتقاليد الموروثة ، وتيار المدنية والتحرر .. اننى أحيانا أشعر أنى لست أنا ، لا أدرى ما هى حقيقة نفسى ، أشعر أننى على وشك الاصطدام بشىء مجهول لا أستطيع أن أعرفه تماما .. كثيرا ما فكرت لو أننى بقيت فى « طنطا » واكتفيت بما حصلت عليه من العلم ، لكنت أسعد حالا مما أنا عليه الآن ، ولكنى مع هذا راضية وسعيدة بهذا الوضع الجديد .. فى هذه المدة القصيرة التى قضيتها بالقاهرة ، عرفت وأحببت وكرهت أناسا كثيرين .. لقد سعدت قليلا وتألمت كثيرا بمعرفة هؤلاء الناس ..

كنت أعيش بطنطا فى عالم محدود ضيق غير مختلط ، كنت لا أبرح المنزل مطلقا الا للذهاب الى المدرسة ، وكنت أتلهف الى يوم العطلة حين يأخذنى أبى أنا وأختى ، وأحيانا تكون معنا أمى فنذهب الى السينما .. هكذا كانت تسير حياتى رتيبة مملة ، فكل يوم كان يمر بى شبيه بأمسه كما هو شبيه بغده ، ولكنى كنت لا أشعر بأى ضيق فقد تعودت على هذه الحياة التى نشأت فيها منذ صغرى .. لم يرزق أبى بأولاد ، وكان يتمنى أن يكون له ولد ليجعله طبيبا ، ولكن الله لم يحقق أمنيته ربما لحسن حظى ، لذلك أراد أبى أن تكون أختى الكبرى طبيبة ، وأن ألتحق أنا بكلية الآداب قسم صحافة ، لما لدى من ميل صحفى وأدبى .. ولكن أختى « آمال » بدلا من أن تصبح طبيبة ، اختصرت الطريق وتزوجت من طبيب شاب كان يقطن بالعمارة المواجهة لمنزلنا .. عندما تقدم هذا الطبيب لخطبة « آمال » فهمت وقتها فقط لماذا كانت « آمال » تفضل الاستذكار بهذه الحجرة التى تطل على عيادة الدكتور وفهمت أيضا أن هذه النافذة المفتوحة دائما كانت السبب فى رسوبها آخر العام ..

فرحت أمى فرحا لا يوصف ، وكانت تنظر الى « آمال » بعيون ملؤها السعادة ثم تقول :

— ربنا يتمم بخير يا حبيبتى .. أحمد الله أن أطال فى عمرى حتى رأيتك عروسا .

ثم تتحول لتنظر الى وتكمل حديثها قائلة :

— أعرف أن كلامى لن يروقك يا « أشجان » لكنى أتمنى أن أراك أنت أيضا مع عريسك قبل أن ينتهى عمرى .

ولكنها كانت ترى الضيق يرتسم سريعا علىَ وجهى فتواصل حديثها بلهجة كلها رجاء .

— اعقلى يا حبيبتى واتركى حكاية الجامعة هذه .. البنت ليس لها من مصير غير الزواج مهما تعلمت .

كانت أمى تعلم أن خطيب أختى له شقيق مهندس لم يتزوج بعد ، لذلك كانت تأمل فى أن يتقدم هذا الشقيق للزواج منى ولكنى لم أحاول أن أقف ولو لدقيقة واحدة لأفكر فيما تقوله أمى فقد كنت مطمئنة كل الاطمئنان لأن أبى يقف الى جانبى فى ضرورة اتمام تعليمى العالى أولا .. فبرغم تزمت أبى الشديد ، وعدم سماحه لنا أنا وأختى وأمى بالجلوس مع أقاربنا من الرجال .. الا أنه يثق بى ثقة لا حد لها .. ويعرف تماما أننى أومن بمعتقداته وبنصائحه المتكررة ، ان ثقة أبى بى جعلته يوافق على ذهابى وحدى الى القاهرة ، اننى أتذكر نصيحته لى فى الليلة السابقة لسفرى ، قال :

— احذرى يا ابنتى من شباب هذه الأيام .. ان كثيرا منهم بدون مبادىء ولا أخلاق .. كل همهم التغرير بالفتيات

الساذجات .. كما أنني لن أنسى أبدا ليلة زفاف « آمال » لقد كانت ليلة مرحة جميلة .. ليلة لا تنسى أبدا .. كانت أختي تبدو كالملاك الجميل ، وهي ترتدي ثوب الزفاف الأبيض الطويل ، وعلى رأسها طرحة شفافة تزيدها جمالا وروعة وكان زوجها ينظر اليها نظرات اعجاب وحب ورغبة كأنه يريد أن يحملها بين ذراعيه ، ويجري بها بعيدا عن هذه العيون الكثيرة التي تكاد تلتهمها ..

في هذه الليلة رأيت لأول مرة « علي » شقيق زوج أختي ، انه في حوالي الثلاثين من عمره ، نظرات عينيه هادئة عميقة ، وسماحة وجهه تنم عن الصدق والطيبة ، أنيق في غير افراط ، انه على ما يبدو شاب مستقيم عاقل ، رزين ، فقد كان طيلة الحفل يجلس في مكانه صامتا لم يحاول أن يشترك مع بقية المدعوين في التهريج الصاخب ، والقاء القفشات .. لاحظت أنه كان ينظر ناحيتي طويلا ، ويخصني باهتمام ملحوظ ، بينما كنت مشغولة باستقبال المهنئين كانت زغاريد أمي لا تنقطع أبدا .. تجري من حجرة الى أخرى كأنما عادت فتاة صغيرة ، حتى لقد تصورتها أسعد من أختي نفسها وكانت هذه أول مرة أرى فيها الدموع تترقرق في عيني أبي .. كانت سعادته أقوى من أن يحتملها قلبه الطيب ، وظلت هناك دمعة تلمع في عينه طيلة الحفل .. وذهبت

« آمال » الى بيت زوجها ، ولم يبق فى المنزل سوى أبى وأمى وأنا .. تركت أختى وراءها فراغا كبيرا أحسست به بعد أن رحلت عنا وبقيت الوحشة .

ولكنى كنت أذهب دائما أنا وأمى فنمضى ليلة يوم الجمعة مع أختى وزوجها ، وكثيرا ما يكون « على » موجودا ، كنا نقابله هناك مصادفة فنمضى سهرة لطيفة ممتعة ، ثم أصبح يأتى بعد ذلك متعمدا فى هذا اليوم بالذات ليرانى .. كنت أسعد بالجلوس معه ، والاستماع الى موسيقاه العذبة ، فانه بارع فى العزف على الكمان ، كما أن أحاديثه كلها كانت مما يثير اهتمامى ، فهو يتحدث جيدا عن الفن والشعر والجمال عن كل هذه الأشياء التى كنت أهفو اليها .. كنت أتابع حديثه بانصات بالغ .. كما كنت أعجب بأخلاقه الهادئة ، وشخصيته الممتعة .. كان هناك تجاوب بينى وبينه .. بين أفكارى وأفكاره .. كنا لا نمل أبدا مناقشة المسائل الفلسفية وعلم النفس .. كان « على » يؤمن بوجود السعادة الحقة ، وهى فى نظره أن يعيش الانسان فى وئام مع الطبيعة ، وفى أن يستكشف نواحى الجمال فى كل شىء يقع عليه نظره ، الجمال فى الناس والجمال فى الأشياء ، يرى أن الناس فى هذه الحياة هم ركاب باخرة تسير فى عرض البحر ، والبعض منهم ينظر الى المياه جارية حوله من كل ناحية فيرى

جمالا وسحرا وشاعرية ، أما البعض الآخر فينظرون الى المياه
فى خوف متوقعين بين لحظة وأخرى هبوب عاصفة هوجاء تطيح
بهم جميعا وتودى بحيـاتهم ، وهؤلاء هم المتشائمون الذين
لا يشعرون بلذة الحياة وحلاوتها .. كانت أحاديث « عـلى »
تسحرنى وتنقلنى من عالمى الى عالم آخر أشعر فيه بالحق والحب
والخير والجمال .. كثيرا ما كانت أمى تتضايق من حديثنا الذى
ليس له معنى بالنسبة لها ، فكانت تتركنا وحدنا ، وتنفرد بأختى
تسألها عن أحوالها وعن زوجها وعما حدث فى الأسبوع الذى
لم ترها فيه .. تكلمنا فى أشياء كثيرة وطرقنا شتى الموضوعات
الا موضوعا واحدا ، ولو أنى كنت متشوقة الى أن أعرف من
« على » بالذات رأيه فى هذا الموضوع .. فى الحب .. كنت أريد
أن أعرف ما هى نظرته الى هذا الشىء المقدس « الحب » ولكنى
لم أسمع منه كلمة واحدة .. بل لقد لاحظت عليه أنه كان يدير
دفة الحديث دائما حتى لا نخوض فى هذا الموضوع .. انه مهذب
وخجول .. لم يحاول أبدا أن يخرج عن حدود الصداقة البريئة
بيننا .. لقد استطاع أن يغير فكرتى عن الرجال جميعا .. كنت
أعتقد أن الرجل ينظر الى المرأة نظرة حيوانية ، لا يهمه منهـا
الا جسدها فقط ، كل ما يحبه فى المرأة هو المتعة التى تعطيه
اياها ، أما أفكارها وشعورها فلا أهمية لها عندهم مطلقا .. لقد

استطاع « على » بحنوه وسمو أخلاقه أن يمحو هذه الفكرة من رأسى تماما ، وأن يقنعنى بأن الرجال ليسوا كلهم سواء .. فقد كان ينصت الى حديثى بشغف كأنه يستمع الى قطعة موسيقية رائعة ، ويبدى اعجابه الشديد بالقصص القصيرة التى كنت أكتبها فيقرأ القصة بشوق كأنه يقرأ لأحد العباقرة .. كانت هذه اللحظات القصيرة التى قضيتها معه من أسعد اللحظات التى مرت بحياتى ، وأصبحت أشعر أن هناك شيئا يربطنى به ، وتجاوبا يجمع بينى وبينه على مر الأيام .. أحس بجانبه أننى لست انسانة عادية ، بل أحس أننى شىء عظيم ، لم يكتشف أحد سر عظمتى الا هو ؛ لأنه هو الشخص الوحيد الذى فهمنى جيدا .

مرت هذه الأيام السعيدة كالحلم الجميل ؛ وحصلت على شهادة اتمام الدراسة الثانوية ؛ وقدمت أوراقى الى الجامعة وقبلت بكلية الآداب كما كنت أريد ويريد أبى ؛ وكان على أن أستعد لترك بلدى والذهاب الى الجامعة .. أعددت كل ما يلزمنى .. وأرسل أبى خطابا الى بيت الطالبات بالقاهرة ليحجزوا لى مكانا هناك ؛ وهكذا تم كل شىء ولم يبق سوى أيام قليلة على سفرى ؛ وذهابى الى الجامعة ..

كانت فرحتى بدخول الجامعة لا توصف ، ولكنى عندما أيقنت أننى ذاهبة وحدى الى بلد غريب عنى ، وجو لم أعهده

شعرت وقتها بحيرة شديدة ، وتردد كبير ، كان ينتابنى شعور بالخوف من مواجهة هذه الحياة الجديدة بعيدا عن أمى وأبى .. كيف ستستقبلنى هذه الحياة ؟ وكيف سأجد الناس هناك .. اننى لا أعرف أحدا فى القاهرة ، فكيف سأواجه وحدى هذا العالم الجديد المجهول ؟ كل هذه الأسئلة كانت تراودنى فيمتلىء قلبى بالقلق والتردد والأمل ..

قبيل سفرى ذهبت الى « آمال » لأودعها ، وكانت القبلات والدموع الحارة ، فما أصعب الفراق حتى ولو كان بعده لقاء .. كان هناك شخص عزيز الى نفسى ، حبيب الى قلبى أريد أن أراه قبل سفرى ، فعلمت من « آمال » أن « على » عند شقيقه فى العيادة ، فذهبت سريعا الى هناك ، فلمحت « على » فى حجرة الانتظار ، وما ان رآنى حتى قفز من مكانه ، وأمسك بيدى وهو صامت وقادنى الى الخارج بدون أن نرى زوج أختى ، وسرنا فى الطريق جنبا الى جنب قبل أن يقول شيئا ، وكأنه يبحث عن كلمات يبدأ بها حديثه ، فابتدرته قائلة : —

— لقد بحثت عنك كثيرا .

فقال بصوت مرتبك .

— « أشجان » أود أن أخبرك بشىء مهم .

كنت أعرف ماذا يريد أن يقول .. ولكنى كنت أريد أن أتأكد أكثر فأجبته فى لهفة .

— ماذا تريد أن تقول .. ماذا يا « على » ؟

وتعمدت أن أناديه باسمة فى رقة ، حتى يبوح لى بكل شىء ، فأمسك يدى بقوة ونحن نسير فى الطريق لا نعرف الى أين نحن ذاهبان ، ثم قال وهو ينظر الى وجهى :

— هل تذكرين أول يوم رأيتك ؟ .. لقد كان هذا فى حفل زفاف شقيقى . منذ هذا اليوم وأنا أشعر أنى أريد أن ارتبط بك الى الأبد .. وعند تحادثنا شعرت بأن هذه الرغبة تزداد .. الرغبة فى أن نكون دائما معا .. لقد تأكدت تماما أنى ..

ثم صمت قليلا ، فشعرت أن يدى تهتز بشدة فى يده ، ولم أستطع أن أمنعها من الارتعاش ، فحاولت أن أخفى الانفعال الذى انتابنى فقلت وأنا أخفض رأسى حتى لا يرى عينى .

— انك ماذا ؟

فقال فى صوت حالم :

— أنت تعلمين جيدا أنى أحبك ، وأنك أصبحت كل شىء فى حياتى .. ولكنى أحب أن أتأكد من شعورك نحوى .. أهو نفس الشعور ، أم أنى مجرد صديق ؟

فقلت وأنا أخفى اضطرابى :

— أنت تعلم جيدا حقيقة شعورى نحوك .

فقال وابتسامة سعيدة ترتسم على شفتيه :

— أشجان .. أنا أسعد انسان فى الوجود .. هل .. هل تقبلين الزواج منى ؟

عند ذلك لم أستطع أن أجيب على سؤاله من شدة السعادة والارتباك ، وشعرت أن قدماى لا تقويان على حملى أكثر من ذلك .. فأردف قائلا :

— سأرافقك حتى المنزل لأتحدث مع عمى فى أمر زواجنا ، ولكنى تذكرت الجامعة وأننى لا أستطيع الزواج فى هذا الوقت ، فسألته :

— على .. هل تستطيع أن تنتظرنى حتى أنتهى من تعليمى ؟

— نعم يا أشجان .. فانى أحب فيك طموحك هذا قبل كل شىء ، ونزوعك نحو التعليم .. انى أريدك أن تواصلى تعليمك حتى النهاية .. كل ما أريده أن تعدينى أن تكونى لى فى يوم من الأيام .. هذا هو أقصى أملى فى الحياة بعد أن عرفتك .

انى لا أستطيع أن أعبر عن مدى سعادتى بكلماته هذه .. هذه الكلمات التى كنت أتلهف على سماعها منه .. كنت أريد أن أعرف هل يبادلنى حبى ، فاذا به غارق فى حبى .. شعرت وقتها أن الدنيا كلها تغنى معى أغنية مرحة ، وأصبحت أرى الجمال

والروعة فى كل شيء حولى ، أحببت الناس جميعا ، فالحب هو السلام للناس ، وهو مصدر كل شيء جميل فى هـذا العالم . لو عرف الناس جميعا معنى الحب ، لأصبحت الحياة أمرا ممتعا بالنسبة لهم ..

تحدث « على » مع أبى فى موضوع زواجنا فوافق ، وكانت فرحته كبيرة لأنه يحب « على » ويطمئن الى أخلاقه .. كانت نشوتى لا توصف عندما قرأ أبى الفاتحة مع « على » فالرجل الذى أحببته بكل جوانحى سيصبح زوجا لى فى المستقبل كنت كمن أمسكت الكرة الأرضية بيديها تديرها وتوقفها كما تريد حتى خفت أن أحسد نفسى لفرط سعادتى ..

وقف « على » مع أبى على رصيف محطة طنطا يلوحان لى بأيديهما مودعين والقطار يتحرك بى الى القاهرة .. الى الجامعة، فظللت أنظر الى « على » ليكون آخر شيء أراه هو وجهه العزيز ، ثم اغمضت عينى بعد ذلك لتظل صورته عالقة بخيالى ، أحلم بها حتى وصلت الى القاهرة ..

— ٢ —

نزلت من القطار أتلفت حولى حائرة .. ما هذه الضوضاء الشديدة ؟ .. الى أين أسير ؟ .. وما هو الطريق الذى يفضى بى الى بيت الطالبات ؟ لقد وجدت نفسى وسط هذا الزحام الشديد حتى كادت الدموع أن تطفر من عينى ، ولم ينقذنى من حيرتى سوى صوت صبى صغير رث الثياب حافى القدمين يريد أن يحمل عنى حقيبتى فأعطيتهـا اياه ، وسرت وراءه مسرعة أتخبط فى الزحام وعينى على الصبى حتى لا يغيب عن ناظرى .. وخرجنا من فناء المحطة فوقف الصبى ونظر الى ثم قال :

— الى أين ؟

فقلت له :

— يكفى هذا .

ومددت يدى فأخذت منه الحقيبة ، وأعطيته قطعـة نقود فضية فوضعها فى جيب جلبابه ومضى يبحث عن زبائن غيرى .. وقفت برهة أنظر حولى حتى لمحت احدى عربات الأجرة فأشرت السائق فأسرع الى ثم وضع الحقيبة فوق العربة ، وأعطيته

عنوان بيت الطـالبات فى الجيزة .. ظللت أطل برأسى من نافذة العربة أنظر بعيون مستطلعة .. حقا ان القاهرة كبيرة جـدا وشوارعها واسعة فسيحة وتكتظ بالناس وتصطخب بالضجيج .. اجتازت العربة عدة شوارع طويلة ، ولم نصل بعـد الى بيت الطالبات ، ثم وقف بى السائق أخيرا أمام بيت كبير أنيق المنظر تحف به حديقة جميلة منسقة فأخذت حقيبتى وسرت فى طريقى بعد أن شكرت السائق وأنقدته أجره ..

وجدت بوابة الحديقة منفرجة قليلا فدلفت منها الى الداخل ، وسرت فى ممرها الطويل حتى وصلت الى باب كبير مقفل فنقرت فوقه بأصابعى نقرات خفيفة ، ففتح الباب بعد برهة وظهرت وراءه امرأة بدينة أشرفت على الخمسين من عمرها ، قصـيرة القامة ذات وجه ينم عن الصرامة والحزم .. كانت ترتدى ثوبا أبيض له أزرار من الأمام كثياب الممرضات ، وكانت تنتعل حذاء أسود اللون بدون كعب . وقفت تنظر الى نظرات مسـتفسرة فابتدرتها قائلة :

— أليس هذا بيت الطالبات ؟

فقالت فى حدة :

— هل اسمك مقيد عندنا ؟

ولما أجبت بالايجاب أدخلتنى وأغلقت الباب ثم سارت أمامى

« م ـ ٢ اشجان »

وأمرتنى أن اتبعها . سرت وراءها فى صالة واسعة بها سلم يقود الى الطابق العلوى ، ودخلت حجرة مكتوب على بابها « حجرة المشرفة » ففهمت أن هذه السيدة هى المشرفة على الطالبات هنا ، فدخلت وراءها ، وأخذت السيدة أحد الدفاتر من دولاب فى الحائط ، ثم جلست أمام مكتب صغير ، وأخذت تبحث عن اسمى ، ولما تأكدت من وجوده قادتنى الى الطابق الأعلى حيث توجد عدة حجرات على باب كل منها رقم ، وكانت هناك بعض الفتيات يقفن فى الممر الطويل ، فألقيت عليهن التحية ، وسرت وراء المشرفة التى فتحت باب احدى الحجرات ، ثم استدارت ناحيتى ، وقالت :

— هذه هى حجرتك ، وعندك التعليمات معلقة على الحائط هناك ..

قالت هذه الكلمات باقتضاب شديد كأن أحدا يخرجها من فمها بالقوة ، وكنت على وشك أن أسألها عن عدة أشياء ، ولكنها تركتنى وحدى ، وأغلقت الباب وراءها ..

كانت الحجرة صغيرة تحتوى على سريرين صغيرين نظيفين كأسرة المرضى ، ودولاب صغير له ضلفتان ، ومرآة مستديرة معلقة على الحائط فى الوسط ، ومنضدتان صغيرتان ، وكرسيان .. هذا الأثاث البسيط هو كل ما تحتوى عليه الحجرة ..

كنت وقتها متعبة مرهقة من أثر السفر ، فاستلقيت على الفراش ، واستغرقت فى نوم بدون تفكير .. ثم استيقظت فجأة مذعورة على يد تهزنى من كتفى .. فوجدتها فتاة فى حوالى العشرين أو الثانية والعشرين من عمرها ، وجهها جذاب ، وفى عينيها شقاوة ، وشعرها يسترسل على كتفيها فى اهمال مقصود ، وكانت متوسطة الطول تميل الى البدانة ، وكانت ترتدى ثوبا مبتكرا جميلا ، ولو أنه كان خارجا بعض الشىء .. جلست بجانبى وقبل أن أفتح فمى ، أخذت تمطرنى بوابل من الأسئلة عن اسمى ، والبلد التى أتيت منها ، والكلية التى سألتحق بها .. شد ما كان سرورى عندما علمت أن هذه الفتاة اللطيفة هى زميلتى فى الحجرة .. فلقد أشعرتنى « دلال » — وهذا هو اسمها — أننى لست غريبة عنها وكأننا كنا على صلة قوية قبل ذلك . انها فتاة مرحة مسلية ، وهذه هى السنة الثانية التى تأتى فيها الى القاهرة من بلدها المنصورة ، فهى فى السنة الثانية بكلية الحقوق ، وتوثقت روابط الصداقة سريعا بيننا وأخبرتنى بكل شىء عن حياتها ، عرفت أنها يتيمة الأب ، وأنها الأخت الوسطى لثلاث بنات .. الأخت الصغرى تلميذة فى المدرسة الثانوية ، بينما تشتغل الأخت الكبرى بالتدريس فى « بنها » ، و « دلال » ليست فقيرة ، فان والدتها تمتلك منزلين بالمنصورة الى جانب المعاش

الذى تركه والد « دلال » و « دلال » تمثل الفتاة المتحررة تماما فهى تحمل أفكارا تحررية غريبة .. تؤمن بالاختلاط الى أقصى حدوده ، فكانت لا تتورع أبدا عن الخروج مع أى فتى تصادفه فتقضى معه يوما جميلا فى أى مكان .. كنت أنظر اليها بتعجب واستغراب شديدين وأنا غير مصدقه ، حينما كانت تأتى متأخرة ، وتستلقى على الفراش فى نشوة ، وهى تروى لى بكل بساطة ، وبدون أى تحرج أنها ذهبت الى السينما مع صديق لها .. حاولت كثيرا أن أفهمها بأن الذهاب الى السينما مع رجل غريب ، أو حتى السير معه فى الطريق يعتبر أكبر عيب بالنسبة للفتاة ولكنها كانت تهزأ بنصائحى المتكررة ، وكان غريبا أن تكون « دلال » وأنا صديقتين حميمتين فى الوقت الذى كانت فيه أفكار كل منا تتعارض تماما مع أفكار الأخرى ، وكانت تصفنى دائما بأننى فتاة خام غير اجتماعية ..

ان الحياة قصة كبيرة خالدة ، مليئة بالأحداث والمفاجآت المختلفة ، وما أكثر ما تجود به الحياة من تجاريب وعبر ، وهى دائما فى تحول وتغير متصل . قبل أن أحضر الى القاهرة لم أكن أتصور أبدا الحياة الجديدة التى واجهتنى هنا ، أو لعلى تصورتها شيئا آخر تماما غير الذى صادفنى فى حياتى الجديدة .. لقد صادفت فى الجامعة جوا غريبا يختلف كثيرا عن الجو الذى

كنت أعهده من قبل .. ان هذا الجو ملىء بالمتناقضات ، فهناك من يفهمون المعنى الحقيقى للجامعة ، هــذا المكان المقــدس .. يفهمون أنه ملتقى لذوى الأهداف السامية الذين وضعوا تحصيل العلم نصب أعينهم » وهدفهم الوحيد .. وهناك فئة أخرى يفهمون أن الجامعة هى مكان الحرية المطلقة والاستهتار بالقيم والتقاليد .. دخول الجامعة بالنسبة لهم مغامرة جميلة يفعلون فيها ما يحلو لهم تحت اسم طلب العلم .. وهناك الشائعات التى تطارد الجميع ، فالجامعة هى علم وطرافة فى نفس الوقت .

فى حياة كل انسان لحظات رهيبة لا تنمحى ذكراها من مخيلته أبدا ، وكلما جالت بخاطره هذه اللحظات أصابته قشعريرة من مجرد الذكرى ، وكانت أكثر هذه اللحظات رهبة بالنسبة لى هى تلك اللحظة التى اقتربت فيها من هذا المبنى الكبير الغامض .. مبنى الجامعة .. كنت أرتجف من الرهبة حتى لقد فكرت أن أرجع ثانية من حيث أتيت وأنزع فكرة دخول الجامعة من رأسى .. كان الطلبة يقفون جماعات فى مدخل الكلية .. وما أن لمحونى حتى أخذوا يحلقون فى وجهى ، فأحسست أن قدمى تتعثران فى سيرهما ، حتى كدت أقع ، ثم تقدمت فى خطى متعثرة اخترق صفوف الطلبة والطالبات ، أشعر بسخونة الدماء التى تصاعدت الى رأسى وأنا أسمع تعليقات الطلبة من كل مكان ، على الوجه الجديد ..

— لا بأس مطلقا بالسنة الأولى هذا العام .

— لماذا تبدو متكبرة هكذا ؟ لها الحق فهى جذابة جدا ..

وبرغم ضيقى بهؤلاء الطلبة ، الا أننى شعرت ببعض السرور لهذا الاطراء الذى استقبلونى به .. ما كدت أصل الى حجرة الطالبات حتى جلست أستعيد هدوء أنفاسى المتلاحقة اللاهثة ، كأنى قد قمت بعمل مرهق وشاق ، وبعد أن عاد الى الهدوء والسكينة أخذت أسائل نفسى .. هل أنا حقيقة هنا .. فى الجامعة .. هذا الحلم الذى كان يراودنى طويلا منذ سنوات ؟ وهل حقيقة أننى قبلت بها وأصبحت أحمل اسم طالبة جامعية ؟ .. وعندما تأكدت أننى لا أحلم اجتاحتنى نشوة عارمة ، ولذة كبيرة ..

ان أبرز شىء يراه الداخل الى حجرة الطالبات هو تلك المرآة الكبيرة المستطيلة التى تمتد بعرض الحائط ، أما باقى محتويات الغرفة فهى أنتريه كبير أخضر اللون ، وعدة كراسى على الطراز القديم ، وبالحجرة نافذة عالية وملحق بالحجرة دورة للمياه .. رأيت الفتيات يزاحمن بعضهن أمام المرآة كأنهن سيشتركن بعد قليل فى مباراة للجمال ، فهذه طالبة أقبلت مسرعة ، ثم أخرجت من حقيبة الكتب أصبعا للأحمر ، وقلما للحواجب وعلبة بودرة ، وأخذت تلطخ وجهها ، ثم نظرت الى المرآة فى ثقة ودلال ، وخرجت تتمخطر فى مشيتها كأنها ذاهبة الى حفلة ساهرة .. وفتاة

أخرى تصيح باحثة عن مشط للشعر ، وهذه تعدل من ملابسها فترفع طرف الجونلة لتشد أطراف البلوزة من الداخل ثم تقصر خصرها فى حزام ضيق ، وأخرى تدور وتلف أمام المرآة حتى تتأكد من كل زاوية فى جسمها .. أما الأحاديث التى تدور بينهن فهى غالبا تدور حول آخر الأفلام ، والأزياء الحديثة وأخبار الصديقات ، وآخر المغامرات التى تحدث فى رحاب الجامعة ..

وقد استرعى انتباهى حديث بين طالبتين فسمعت الأولى تقول :

— هل تعلمين يا سلوى أن سمير ليس خاطب كما يدعى لسوزان .

— حقا ؟

— نعم . هذا حق وحياتك .. أظن أنه يقول لها هذا حتى لا تلصق به .

— يا له من ماكر حقا .

— ان لديه كل العذر فهذه الفتاة التى تدعى « سلوى » ثقيلة الظل ، ثم تنظر الطالبتان الى بعضهما وتنفجران فجأة فى ضحكات عالية ، وفتاة أخرى تحكى لزميلاتها فى همس مسموع عن آخر مغامراتها ، ومع هذا لا تخلو الحجرة من طالبات مجدات يعتكفن فى أحد الأركان يراجعن سويا ما أخذن من محاضرات غير عابئات بما حولهن من ضجيج ..

عندما جلست لأول مرة فى المدرج الكبير الذى يضم الفتيات والفتيان معا لأول مرة ، كنت أشعر بالحرج يجتاحنى كلما لمحت أحدا من الطلبة ينظر الى .. استمرت المحاضرة حوالى الساعتين ، ظل الأستاذ يحدثنا فيها عن تاريخ الصحافة ، ولكن لم أستطع أن أتابع شيئا مما قاله الأستاذ ، وحينما انتهت المحاضرة شعرت برأسى يكاد ينفجر من شدة الصداع ، فأخذت كراستى فى يدى، وتوجهت فورا الى باب الكلية ، وسرت فى طريقى الى بيت الطالبات .

وما أن وصلت الى بيت الطالبات حتى استلقيت على الفراش بحجرتى فى ارهاق أتابع بذاكرتى أحداث اليوم ، ولم يمض وقت طويل حتى سمعت بعض الجلبة والضحكات المتتابعة ، ثم فتح الباب ودخلت « دلال » ضاحكة ، وما ان وجدتنى حتى صاحت وهللت بوجهها المرح وآخذت تسألنى عما حدث ، وعن الصداقات التى ارتبطت بها فى هذا اليوم ، ولما أخبرتها اننى تعرفت على بعض الفتيات اللطيفات نظرت الى نظرة ماكرة ، ثم قالت لى :

— أنت ما زلت عبيطة .. أنا لا أسألك عن الفتيات .

فنظرت اليها فى تعجب شديد ، ولكنى كنت متعبة فلم أجب عليها بشىء وأغمضت عينى لأنام .

— ٣ —

أحيانا تمر سنون طويلة من عمر الانسان تمضى متتابعة دون أن يحدث فيها شىء مثير أو أى شىء جدير بالذكر ، ولكنه فى أيام قليلة معدودة ، ربما تصادفه أحداث يكتسب فيها تجربة وخبرة تساوى سنوات عديدة ، ولكنه يدفع ثمن هذه التجربة غاليـــا ..

فبعد أن أمضيت بالقاهرة حوالى الشهرين كنت قد تعودت على هذا الجو الجديد ، وأصبح بالنسبة لى شيئا عاديا ، فرجعت الى طبيعتى المرحة الأولى ، ونسيت أننى بعيدة عن أهلى وصديقاتى فى طنطا ، فمن خصالى لا أدرى ان كانت محمودة أم لا ، اننى أتعود سريعا على كل جديد ، ولا يطول استغرابى كثيرا حتى فى الغريب من الأشياء ..

كنت أبعث دائما بأخبارى الى أمى وأبى ، وكلما وصلنى خطاب من أبى يبلغنى فيه شوقه الشديد وشوق أمى وسؤالها المتكرر عن أحوالى ، كنت أظل أبكى من التأثر ، وكان « على » يرسل لى الخطاب تلو الآخر يبثنى غرامه فى كلمات حـلوة مهذبة ، وكلما قرأت كلماته كنت أتخيل وجهه الهادىء الحبيب

فيعتريني شعور لذيذ ، ونشوة ساحرة ، فأهرع الى غرفتي ، واستخرج جميع القصص والروايات التي لدى ، فأنتقى منهـا الكلمات الرقيقة التي تعبر عن الحب والشوق ، فأسطر له خطابا رائعا ، كان « على » يملأ حياتي بالسعادة والأمل ، فان وجهه الرزين يوحى الى بالطمأنينة والسلام والهدوء ..

كنت أذهب الى الكلية صباحا ، وعندما انتهى من محاضراتي ، أسرع الى بيت الطالبات ، فلم أكن أذهب الى الرحـلات التي تقيمها الكلية ، وكنت لا أحتك أبدا بزملائي الطلبة اللهم الا تحية الصباح ، ولكنى مع مرور الأيام ، وجدت أن هذا شيء ممل حقا ، لماذا لا أشترك في الحفلات والرحلات التي أحبها كثيرا ، فبدأت أخرج عن هـذا الجمود الذى ضايقنى ، ووجدت أن صحبة الطلبة لا تخلو من الطرافة ، وأصبـح الجلوس مـع الطلبة والطالبات بعض الوقت بعـد الانتهاء من المحاضرات شيئا مسليا ، ربما كانت « دلال » وراء هذا التغيير الذى أصابني فقد شجعتني على حضور الحفلات الساهرة التي تقيمها الكلية ، كما سهلت لى أشياء كثيرة كنت أظنها خروجا على التقاليد ..

وذات يوم استقبلتني « دلال » مهـللة كعادتها دائمـا وقالت لى :

— « أشجان » عندى لك مفاجأة هائلة .

— ما هى ؟

— معى تذكرتان لحفلة رأس السنة فى ملهى « الرومانس » .

— من أين حصلت عليهما ؟

— من « عصام » لابد أنها ستكون حفلة مدهشة .

— لكنى لن أستطيع أن أذهب معك ، يكفيك « عصام » هـذا ..

— ماذا ؟ .. يجب أن تأتى معى ، ولا تضيعى هذه الفرصة .

ان « دلال » لديها مقـدرة فائقة على الاقنـاع ، فبرغم احتجاجاتى الكثيرة استطاعت أخيرا أن تقنعنى بالذهاب معها الى تلك الحفلة ..

لا أدرى ما هى تلك القوة الخفية التى تدفعنى الى اتيان أعمال لا أستسيغها فى قرارة نفسى .. هناك شىء خفى يغرينى بأعمال غريبة ، وبعيدة كل البعد عن نفسى وعن كل ما أومن به ، ولكنى لا أحاول أن أعترض أو أن أغير شيئا ، كأنه القـدر يدفعنا الى تنفيذ أغراضه باغراء شديد ألا وهو اغراء اكتشاف المجهول .. اغراء اكتساب المعرفة عن طريق التجربة .

* * *

وقبل ميعاد الحفلة بأيام كان كل ما يشغلنا هو التفكير فى الثياب التنكرية التى يجب أن نرتديها ، وكيفية الحصول عليها ،

فلم يكن لدينا وأنا بالأخص ثياب تصلح لحفلة ساهرة كما تنقصنا أيضا وسائل التنكر التى تلزم لمثل هذه السهرات كما تقول « دلال » ، وأخيرا قررنا أن نستعير الثياب من احدى المحلات التى تؤجر الثياب اللازمة للمسرح ، وقبيل موعد الحفل بساعات توجهنا سويا الى محل تأجير الثياب ، وظللنا نبحث وننتقى ، وأخيرا عثرت على ثوب جميل براق أحمر اللون ترتديه الممثلات اللاتى يقمن بتمثيل أدوار كليوباترة على المسرح ، فأخذته الى الحجرة الداخلية بالمتجر ، وارتديته بعد أن أدخلت عليه بعض الاصلاحات حتى يناسب جسمى ، ثم نزعت الدبابيس التى ترفع شعرى الطويل الى أعلى ، وتركته يسترسل على كتفى ، وقصصت بعض الشعيرات الأمامية فوق جبهتى حتى أبدو مثل كليوباترة ، ووضعت تاجا صغيرا من الماس الصناعى فوق رأسى ، وقرطا طويلا فى أذنى ، وعقدا رائعا على صدرى من نفس نوع التاج ، أما الحذاء العالى فقد انتقيته من بين أحذية « دلال » الكثيرة ، وبعد أن انتهيت من كل شىء نظرت فى المرآة فرأيت فتاة أخرى غير « أشجان » التى أعرفها ، لقد بهرتنى صورتى حتى لقد اعتقدت اننى حقيقة كليوباترة ، فوقفت رافعة الرأس ، شامخة الأنف حتى تكمل العظمة ، وأكملت بقية التنكر بأن وضعت قناعا أحمر اللون فوق عينى .. بعد أن استكملت

زينتى خرجت أبحث عن « دلال » لأريها شكلى الجديد ، فرأيت أمام الحجرة شابا فى مقتبل العمر يرتدى ملابس رعاة البقر ، وما أن رآنى حتى تقـــدم الى بجرأة ، وطبع قبلة سريعة على خدى ، وقبل أن ألطمه على وجهه ، رأيت فيه عينين أعرفهما جيدا ، فلم يكن هذا الفارس الجميل سوى صديقتى العزيزة « دلال » ، وقد وضعت شاربا على وجهها حتى يغير من ملامحها .. وكان ميعاد الحفل قد حان ، فاستأجرنا احدى سيارات الأجرة ، وجدنا باب الملهى من الخارج مضاء بالأنوار الخاطفة البراقة والشارع أمامه مزدحما بالسيارات الفاخرة على طول الطريق ، وتنبعث من الداخل موسيقى مرحة .. فتقدمتنى « دلال » الى الداخل حيث وجدت بهوا كبيرا تصطف به عدة موائد على شكل دائرى ، وفى الأمام تجلس فرقة للأوركسترا تعزف ألحانا صاخبة ، والمكان مزين بالأوراق الملونة ، والبالونات فى كل ناحية ، وكان الناس يملأون هذا البهو الفسيح وهم يرتدون ملابس الكرنفال الزاهية حتى بدوا كخليط عجيب يجمع بين جنسيات مختلفة ، فهذا يرتدى ملابس الهنود ، وهذه فتاة صينية الملبس ترتدى هذا السارى المزخرف الجميل ، وقد وضعت على وجهها قناعا لوجه امرأة صينية ، وأخـــرى ترتدى زى فلاحة مصرية ، وتلك يابانية ، ومجموعة من البلياتشو المضحك والبعض يلبس الطراطير الطويلة ،

حتى الحيوانات كان لها نصيب فى هذا الخليط العجيب . فبعض الحاضرين كانوا يرتدون جلود الحيوانات مثل الفيل والزرافه والقرد .. كان الجميع يصيحون فى مرح ، ويدورون حول الموائد فى رقصات صاخبة غير منتظمة ، لا ينظر أحدهم الى الآخر ، بل كل شخص منهم يحاول أن يمتع نفسه وينطلق الى أقصى حد متحررا من كل قيد كأنهم قد رجعوا الى عهد اللهو .. عهد الطفولة وشقاوتها .. تلفت حولى فلم أجد « دلال » فكانت قد انضمت الى الطابور المرح ، حتى أنا وجدت نفسى وسطهم يدفعوننى من كل ناحية ، فاندمجت فى هذا الجو الصاخب ، وأخذت أدور وألف معهم ، وأنا أضحك من قلبى .. اننى لم أضحك فى حياتى مثلما ضحكت فى ذلك اليوم ، لقد كنت فى غاية السعادة ولكننى سرعان ما شعرت بالتعب ، فجلست بعيدا الى احدى الموائد ، وابتدأ الجميع أيضا فى الجلوس عندما انتهت الموسيقى الصاخبة .. تناولت أنا و « دلال » عشاء خفيفا مكونا من السندوتشات .. وعندما ابتدأ الرقص تركتنى « دلال » وتقدمت الى فتاة جميلة لترقص معها ، ولم ألحظ أن الفتاة قد فطنت الى أن الشاب الذى يراقصها انما هو فتاة مثلها ، وبينما أنا أشاهد الراقصين والراقصات ، اذ تقدم منى رجل يرتدى ملابس الفراعنة ، وقال :

— هل تسمح لى كليوباترة بهذه الرقصة ؟ ..

فأجبته ضاحكة :

— للأسف الشديد كليوباترة لا تعرف الرقص .

فأجاب باصرار :

— بحق أنطونيوس لأعلمنك الرقص .

وقبل أن أعترض جذبنى من يدى الى حلقة الرقص ، ووضع يده الأخرى على خصرى وأخذ يدور بى يمينا وشمالا ، وأنا أنظر حولى الى أقدام الراقصين حتى لا أصطدم بهم ، ولما رأتنى « دلال » أرقص معه صاحت به قائلة :

— « كيف استطعت يا « عصام » أن ترقص مع أجمل فتاة فى الحفل » . عندما سمعتها تناديه « عصام » عرفت أنه هو صديقها صاحب تذكرتى الدعوة .. وهو شاب فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره طويل القامة ، عريض الجسم ، مموج الشعر ، أزرق العينين ، له عضلات قوية ، صدره مملوء بالشعر الغزير ، له جمال وحشى ، ولعل شكله هو السبب فى الغرور الذى يبدو فى تصرفاته ..

انتهت الرقصة بعد أن كدت أسقط من فرط الاجهاد الذى لم أتعود عليه .. فجلسنا ولحقت بنا « دلال » فقال لها :

— انك أنانية جدا يا « دلال » كيف تكون لك مثل هـذه الصديقة الرائعة ، وتحجبينها عنا .

ثم استطرد ، وجها كلامه لى :

— لماذا لا تأتى مع « دلال » الى النادى ؟

فقلت :

— لم أفكر فى هذا من قبل .

فقال محاولا اقناعى بالاشتراك فى النادى .

— بل يجب أن تفكرى .. يجب أن تكون لك رياضة تمارسينها .

وهنا خاطبتنى « دلال » قائلة :

— ألا تعلمين أن « عصام » بطل رياضى عظيم ، لقد حصل على البطولة عدة مرات فى التنس والسباحة .

وهكذا مضت بنا السهرة ، وهو يؤكد لى أنه سيجعل منى بطلة اذا واظبت على الذهاب الى النادى .

انتبهت فجأة فوجدت أن الوقت متأخر ، وأن قوانين بيت الطالبات تحتم علينا ألا نظل فى الخارج الى ساعة متأخرة ، ونظرت الى « دلال » فوجدتها تضحك فى ارتياح ، وكأنها لا تتذكر المشرفة وأوامرها الصارمة ، ثم همست فى أذنى قائلة :

— عند منتصف الليل ستطفأ الأنوار ، وعندئذ سيقبل كل رجل فتاته ، أو أية فتاة يصادفها أمامه .

عندما سمعتها تقول هذا الكلام فى بساطة ، أصابتنى رعشة ، وأحسست أننى قد ارتكبت ذنبا بالذهاب الى هناك ، فاستأذنت منهما وجريت مسرعة الى الباب ووددت لو أن « على » كان معى فى تلك اللحظة ، وهنا ازداد شعورى بالذنب .

أخذت معطفى وتوجهت الى الخارج ، فركبت أول سيارة أجرة صادفتنى فأوصلتنى الى الشارع المجاور لبيت الطالبات ، ونزلت منها وسرت متلصصة أتلفت حــولى وأنا أرتجف من الخوف ، وأفكر فيما عساى أقوله للمشرفة عندما تسألنى عن سبب تأخرى الى هذه الساعة من الليل ، خصوصا وأنا أرتدى هذه الملابس التى تفضح المكان الذى كنت به .. سرت أتخبط فى الظلام الحالك وقد نام الجميع ، وقد وقفت فى حديقة البيت برهة مترددة قبل أن أطرق الباب ، ثم نقرت بأطراف أصــابعى نقرات خفيفة مضطربة ، وبعد مدة فتح الباب ، فوجدت الفراشة وهى تفرك عينيها ثم نظرت الى فى دهشة ، فأشرت لها ألا تتكلم حتى لا يصحو أحد ، وتسللت فى الظلام الى حجرتى دون أن يشعر بى أحد ، وحمدت الله أن المشرفة كانت نائمة ، وبعد أن تأكدت أننى قد وصلت الى حجرتى بسلام استطعت أن أتنفس

بسهولة ، فخلعت ملابسى بسرعة ووضعتها فى حقيبة لأسلمها فى اليوم التالى الى المتجر ، وبعد أن استعدت هدوئى وتذكرت الحفلة والناس وملابس الكرنفال أيقنت أننى قد سعدت بقضاء ليلة رائعة ، ولو أنى كنت أشعر ببعض الضيق الذى لا أدرى سببه .

لم أستيقظ من نومى الا فى ظهيرة اليوم التالى ؛ ووجدت « دلال » أيضا نائمة فى فراشها بملابس الأمس ، ولم أعرف متى وصلت البارحة ، فقد نمت قبل أن تأتى .. لابد أنها انتظرت الى منتصف الليل حتى أطفئت الأنوار ، ولابد أنها قد تلقت قبلة أو أكثر من أحد الأشخاص ، وربما كان « عصام » هو الفتى الذى قبلها فى الظلام ، ونظرت اليها فوجدتها نائمة فى هدوء ، ووجهها مضىء كأنها ملاك جميل وكأنها لم تسلم شفتيها بالأمس لرجل ما .

كان ميعاد المحاضرة قد فاتنى فى ذلك اليوم ، كما أنى كنت أشعر بخمول خفيف فلم أذهب الى الكلية ، وجلست بقاعة الاستذكار فى بيت الطالبات لمدة طويلة أعوض ما فاتنى من المحاضرات .

— ٤ —

مضت عدة أيام منذ ذهبت الى ذلك الحفل ، حتى كدت أنسى كل شيء عنه وعن الأشخاص الذين قابلتهم فيه ، الا أن « دلال » كانت دائما تذكرني بعصام وتبلغني سلامه لي .. الحقيقة أنني أعجبت بشخصية هذا الشاب المرح ، ورحبت بصداقته ، فقد أشعرني أنه أخ لي ، أو صديق حميم أعرفه منذ أمد بعيد ، فان حديثه شائق ممتع ، وهو لا ينتهي أبدا من سرد الحكايات اللطيفة المسلية ، والفكاهات المضحكة وأصبحت أذهب مع « دلال » الى النادي في أيام العطلة لأتدرب على رياضة التنس ، وكان « عصام » يتولى تدريبي كنت أخطيء كثيرا ، ولكنه كان يشجعني دائما حتى أصبحت أجيد هذه الرياضة .. كنت ألاحظ أن الفتيات بالنادي يعجبن بعصام ، ويحاولن الالتفاف حوله لما له من شخصية جذابة مرحة ..

* * *

كانت أحب صديقاتي الى نفسي هي صديقتي « راجية » تلك الفتاة الرقيقة الحلوة الحديث .. انها في حوالي الثامنة عشرة من عمرها ، سمراء اللون ، حلوة التقاطيع ، صغيرة الجسم رشيقة ،

تشع نظرات عينيها بالبراءة والصفاء ، أما أبرز شيء فى وجهها فهو هذا الفم الصغير الدقيق الذى يشبه القلب تماما ، أحببتها لأنها لا تعرف هذا الشيء الفظيع « الخداع » وهذا ما يجعلها تأمن لكل انسان وتتبسط معه فى الحديث ، ولكن ما كان يحيرنى فيها هذه النظرة الحزينة التى تكسو وجهها فى أوقات كثيرة فتبدو مكتئبة برغم الابتسامة التى تضعها دائما على شفتيها حاولت بدون أن أشعرها أن أعرف السر الذى يكمن وراء نظرتها الحزينة ، فصارحتنى بكل شيء .. أخبرتنى أن والدها يريد تزويجها من ابن عم لها ، لا تحبه ولا تشعر به مطلقا ، وهى مع ذلك لا تريد أن تغضب والدها ، وهو الذى ضحى بسعادته فى سبيل تربيتها وتنشئتها أحسن تنشئة ، فرفض أن يتزوج بعد أن ماتت أمها ، و « راجية » لا تزال طفلة صغيرة لم تتعد الخامسة من عمرها ، فكان لها بمثابة الأب والأم معا ، وهى لذلك لا تستطيع أن تعصى رغبته الملحة فى تزويجها من ابن أخيه .. لقد رأيت صدفة ابن عم « راجية » فوجدته شابا جمع بين الوجاهة والرجولة ، وهما صفتان لا تجتمعان فى رجل واحد الا نادرا .. لم أجد به عيبا ما وهو فوق ذلك يمتلك ثروة كبيرة ، ويعمل معيدا بكلية الصيدلة ، وتعجبت كثيرا ولم أجد الا تعليلا واحدا لرفض « راجية » الزواج منه ، فألححت عليها ، ثم عرفت

الحقيقة ، وكان تعليلى فى محله .. ان « راجية » فتاة خيالية حالمة الى درجة بعيدة ، تريد أن تهرب من الواقع .. انها تحب شخصا بعيدا عنها كل البعد .. تحب أستاذ الأدب بالكلية حبا بلا أمل ، فهو رجل متزوج ، وهو فوق ذلك لا يشعر بوجودها ، ولما أخبرتها بذلك وبأن حبها من طرف واحد فقط لن يعود عليها الا بالألم والضياع ، انفجرت باكية وهى تقول فى صوت مرتعش : —

— يكفينى أن أراه دائما ، حتى ولو لم يشعر بوجودى .

أشفقت عليها لأنها كانت جادة فى حبها لذلك الأستاذ ، فحاولت أن أبين لها أن الحب من طرف واحد ما هو الا وهم خاطىء لفتاة لم تتعد بعد سن التخيلات والأحلام الواهمة فكثير من الفتيات فى هذه المرحلة من العمر .. مرحلة المراهقة ، يملن الى تعذيب أنفسهن والشعور أنهن مظلومات ، ينظرن الى الشىء البعيد المنال ليشعرن أنهن محرومات معذبات وفى هذا تنفيس لحبهن للألم وتعذيب النفس .. كنت أدرك أن « راجية » ستنسى هذا الحب بمرور الأيام ، وستضحك من نفسها أنها كانت يوما تحب رجلا لا يشعر بها مطلقا ..

وافقت على أن أذهب مع « راجية » الى والدها لأحاول اقناعه بعدم تزويجها الآن ، وبعد خروجنا من الكلية توجهت مع « راجية » الى منزلها ، وهناك قابلت والدها ، ذلك الرجل

الطيب ، فقد رحب بى ترحيبا بالغا ، وقد لاحظت أنه ليس بالرجل العجوز كما كنت أتوقع ، فهو فى حوالى الخامسة والأربعين من عمره لا يزال يحتفظ برونق الشباب وخفته .. جلس معنا مدة طويلة ، وطرقنا شتى الأحاديث ، ثم فاتحته فى موضوع زواج « راجية » وحاولت أن أبين له أن ابنته لا تزال صغيرة السن ، وليس من صالحها الزواج فى الوقت الحاضر ، ثم أسررت له عندما تركتنا « راجية » بأن كثرة الحاحه عليها سيجعلها تكره ابن عمها بل ستحتقره ، لأن الفتاة دائما تحتقر الرجل الذى يحبها اذا لم تكن تبادله نفس الحب .. وأخبرته أن الأيام كفيلة بأن تجعلها تتبين الحقيقة وأن ابن عمها أحق رجل بها .. لاحظت أن والدها قد اقتنع قليلا برأيى ، وبعد هذه الزيارة توثقت روابط الصداقة المتينة بينى وبين هذه الأسرة الصغيرة المرحة وشد ما كان سرورى عندما أقبلت « راجية » فى اليوم التالى وهى فرحة ، وقد زال عنها ضيقها ، بعد أن أخبرها والدها أنها حرة فى اختيار من تشاء ، وأنه لن يجبرها أبدا على الزواج الآن ..

— ٥ —

ان كل فتاة دائما تحاول أن يكون لها أكبر قدر من المعجبين ، وشد ما يضايق الفتاه أن تجد رجلا لا يهتم بها ، وهى لديها من الصبر وطول البال ما يجعلها تنتظر حتى يقع هـذا الرجل فى شباكها ، وذلك بمحاولة اثارة اهتمامه بشتى الوسائل التى تتقنها جيدا ، وعندما تتأكد أنها أصبحت شيئا فى حياته ، فانها تتحول الى غيره وهكذا .. كل هذا تفعله الفتـاة اذا كانت لا تحب ، أما اذا دخل الحب الحقيقى قلبها ، فانها تصبح كالقديسة تماما فتخلص فى حبها ، وتحاول أن تحتفظ به الى الأبد .. هذا هو حال الفتيات دائما .. كنت أعلم أنه سيأتى اليوم الذى تقلع فيه صديقتى « دلال » عن استهتارها وانحرافها عندما تشعر بالحب الصادق ، فقد كانت تحب عدة أشخاص فى وقت واحد ، ثم تكرههم كلهم أيضا فى وقت واحد ، فكانت تغيرهم تماما كما تغير تسريحة شعرها أو ثيابها ..

* * *

كثيرا ما كنت أتسلم من بريد الكلية عـدة رسائل غرامية ملتهبة من بعض الطلبة الذين كنت أستنتج من خلال خطاباتهم

أنهم لم يتعدوا بعد مرحلة المراهقة المليئة بالاحساسات العنيفة ، ولا تخلو خطاباتهم من الطرافة ، فهذا يتهمنى بالسرقة لأننى اختطفت قلبه وتركته حائرا ، وآخر أرسل لى صورة شبيهة بوجهى مرسومة بحبر أحمر اللون مدعيا أنه قد رسمها بدمائه حتى أتأكد من صدق حبه ، والبعض يطلبون الزواج ، وهم لا يزالون بالسنة الأولى .. كنت طبعا لا أرد على أى من هذه الخطابات كما أنى لم أحاول أن أعرف من هم أصحابها ، بالعكس فانى كنت أزداد تجاهلا وكبرياء ، ولكننى كنت أشعر بالزهو والثقة بالنفس كلما ازداد عدد المغرمين بى ، وكنت فى نفس الوقت أشفق عليهم ، فالشاب عندما يصدم فى حبه ، يفقد الثقة بنفسه وبالناس ، ويعتقد أن آماله جميعا قد تحطمت ، وأن حياته لم يعد لها معنى أو فائدة ..

* * *

كان يوم جمعة ، وكنت قد اتفقت مع « دلال » على أن نذهب الى النادى فى ذلك اليوم ، ولكنها أصيبت ببرد جعلها تستيقظ فى الصباح وهى لا تستطيع أن تخرج صوتها ، كانت حرارتها مرتفعة قليلا ، ولم تستطع النهوض من الفراش ، فأعطيتها أحد الأقراص المسكنة ، وطلبت لها كوبا من الشاى الساخن ، فاستغرقت فى النوم مرة أخرى ، وبعد أن اطمأننت عليها ، تركتها

وذهبت وحدى الى النادى ، فكنت قد تعرفت على عدة صديقات وأصدقاء من رواد النادى أذهب لأقضى معهم يوما مرحا مسليا ..

ذهبت ولم أكن أعرف أن ما سيحدث فى هذا اليوم سيجعلنى أنقطع عن الذهاب الى النادى لمدة طويلة .. فبينما كنت جالسة الى احدى الموائد حتى تهدأ أنفاسى المتلاحقة بعد شوط من اللعب العنيف رأيت « عصام » واقفا قرب المدخل يتلفت حوله ، وما ان رآنى حتى أسرع الى حيث أجلس وبعد أن ألقى على بتحية الصباح جلس الى المائدة قبالتى ، وكان يبدو عليه الانفعال وظل برهة بدون أن يتكلم فابتدرته ضاحكة .

— ان منظرك اليوم مضحك جدا ، فأنت الآن مثل التلميذ البليد الذى يقف أمام أستاذه .

فنظر الى نظرة غريبة لم أفهمها وقال :

— آشجان . أريد أن أحدثك فى موضوع مهم ، لكننى أخاف أن أغضبك .

فاستغربت أن يكون هناك شىء مهم يحدثنى فيه « عصام » وأنا أعهده دائما مازحا ، فقلت له :

— تكلم بسرعة ، ماذا تريد ؟

فقال بنفس الطريقة الجادة .

— ان ما سوف أقوله لا يخصنى وحدى ، بل يخصك أنت أيضـــا .

هنا فقط أحسست أن وراء كلامه شيئا خطيرا لم أكن أحب أن أسمعه ، فتصنعت البلاهة وقلت :

— هل تقصد أننا سنشترك فى مباراة مع « نادى الشباب » ؟

فقال فى عصبية وبصوت مشحون :

— أرجوك .. لا تحيدى عن الموضوع الذى جئت أحدثك فيه ثم أكمل حديثه وهو يحاول أن يمسك بيدى التى أبعدتها عن يديه سريعا .

— أشجان . منذ أن رأيتك للمرة الأولى وأنا أحبك أحبك بجنون .. لا تذهبى .. أؤكد لك أننى صادق فى شعورى .

ألجمتنى كلماته ، فلم أرد عليه ، ولم أكن أعرف بماذا أجيبه ؛ بل أخذت أنظر اليه بعيون جامدة دون أن أصدق ما سمعته ؛ فلم أكن أتوقع منه هذا الاعتراف الصريح بالحب ، كنت أعتز بصداقته ، ولكن كلماته هـــذه أفقدتنى صداقته فلن أستطيع بعد الآن أن أعامله معاملة طبيعية .. ووقفت دون أن أنبس بأية كلمة .. فقد منعتنى صداقتى له من أن أهزأ به مثل الآخرين ، فلم أحاول أن أجرح شعوره بأية كلمة ، وصممت على ألا أجعله يرانى بعد ذلك اليوم بأن لا أذهب الى أى مكان يرتاده .

ما ان وصلت الى بيت الطالبات حتى صعدت الى أعلى مسرعة حتى أطمئن على صحة « دلال » فوجدتها جالسة تغنى بصوتها المبحوح ، وما ان رأتنى حتى صاحت تسألنى عمن رأيت ومن سأل عنها ، فذكرتنى بما حدث ، فقلت لها محاولة أن أخفى الانفعال الظاهر فى حركاتى .

— هيا بنا نتناول الغذاء أولا ، أم تريدين أن أبعث لك به هنـــا ؟

ولم ترد ولكنها قفزت واقفة كالبهلوان ، وتأبطت ذراعى الى الطابق الأسفل وهى تغنى وتصفر بفمها .. حتى أوامر المشرفة الصارمة فان « دلال » لا تهتم بها تتصرف كما تشاء دون خوف .. ان صحبتى لها خففت عنى ذلك الضـــيق الذى انتابنى فى ذلك اليوم ، ولكن عندما أقبل المساء أصابنى أرق فلم أقدر على النوم .. ان « عصام » بكلماته الناعمة وأسلوبه الجذاب يريد أن يوقعنى فى حبه مثلما أوقع الكثيرات غيرى ، ولكنه لن يصل الى غرضه معى أبدا لأننى مشغولة عنه ، فهناك من يحبنى وأحبه وينتظرنى فى « طنطا » .. نظرت الى « دلال » فوجدتها مستغرقة فى النوم ، فقمت بهدوء حتى لا أحدث ضجيجا يزعجها ، وأحضرت ورقة وقلما ، وجلست فى ضوء القمر بجانب النافذة أســطر خطابا الى « على » ولكننى لم أجد كلاما أكتبه فمزقت الورقة ،

وعدت ثانية الى الفراش ، وكان الوقت متأخرا ، فاستغرقت فى نوم متقطع حتى الصباح ..

مضت عدة أسابيع لم أقابل خلالها « عصام » وكنت أعتذر لدلال بشتى الأعذار حتى لا أذهب معها ، وكان يسألها كثيرا عنى ، ويحملها سلامه لى ، ولم أخبر « دلال » بشىء مما حدث ، لأنى كنت أريد أن أنسى كل شىء عنه ؛ وفعلا لم أعد أذكره ، سوى أن « دلال » كانت تكلمنى عنه ، ولم أكن أعير حديثها عنه أى انتباه ..

بينما كنت أسير فى طريقى الى محطة الأتوبيس ، تسمرت فجأة فى مكانى ، وأنا أرى « عصام » يقف أمامى ، كنت أخاف من مواجهته ، فحاولت أن أتجاهله وأن أواصل سيرى غير عابئة به ، ولكنه استوقفنى بأن اعترض طريقى ثم قال :

— أريد أن أفهمك شيئا ، ثم أذهب ولن اعترض طريقك بعد ذلك ، خمس دقائق فقط ..

فنظرت اليه غاضبة وقلت :

— ولا دقيقة واحدة .. ليس لدى وقت ، فأنا لست كباقى من عرفتهن ..

وعندما سمع هذا الكلام تحولت الابتسامة فى وجهه الى نظرة باهتة ، وقال :

— هل هذا هو قرارك الأخير ، تأكدى أنى سأختفى الى الأبد ، ولكن يجب أن تعلمى أنك الانسانة الوحيدة التى شعرت ناحيتها بهذا الشعور النبيل ، لقد علمتنى كيف احترمك وأحبك .. بل أعبدك ..

ثم خفض رأسه قائلا :

— الوداع يا « أشجان » .

قال هذه الكلمات ثم تركنى وسار مسرعا فى طريقه حتى اختفى عن نظرى تماما .. عندما تركنى انتابنى وقتها مزيج من الشعور بالارتياح والضيق فى نفس الوقت ، شعرت بالارتياح لأننى استطعت أن أتغلب على هذا الشاب المغرور ، واستطعت أن أبين له أن هناك من الفتيات من لا يتأثرن بسحره ولا بجاذبيته . أما الضيق الذى انتابنى فلم أعرف تماما مصدره ..

بعد أن انتهيت من الامتحان ، أعددت حقائبى ، كما اشتريت بعض الهدايا ، وودعت « دلال » وداعا حارا وكذلك بقية الصديقات والأصدقاء .. ودعتهم وأنا أشعر بحنين جارف للعودة اليهم سريعا فى العام القادم ، وحنين آخر لرؤية من أحبهم فى طنطا .

ما هذا ؟ .. انها محطة طنطا الحبيبة .. لقد وصلت بدون أن أشعر بطول الطريق من القاهرة الى طنطا .. ان الجميع يحملون أمتعتهم استعدادا للنزول ، فالأستعد بسرعة فانى أرى هناك وجوها عزيزة تنتظرنى على المحطة ..

- ٦ -

لم أكن أعرف أن بلدى حبيبة هكذا الى نفسى ، فلم أكد أرى محطة طنطا حتى أحسست بقلبى يقفز سريعا ، ويرقص طربا ، وجسمى كله يهتز من النشوة والسعادة ، فلم تحتمل عيناى هذه السعادة فبكيت من التأثر ، وأبى الطيب يقبلنى فى شوق ، وكان « على » يصحب أبى .. رأيته واقفا يبحث عنى بوجهه الهادىء ، وعينيه العميقتين رآنى فأقبل مسرعا يحيينى ، ووجهه الحبيب يعبر عن سعادته برؤيتى ، فأمسك بيدى طويلا ، وهو يتفوه بكلمات غير مفهومة .. انه هو هو لم يتغير فيه شىء كلامه الرقيق ، وصوته العميق ، ونظرته الحانية .. أخذ يسألنى عن حالى ، وعن الامتحانات ، وهل قضيت أياما سعيدة بالقاهرة ..

كان المنزل لا يبعد كثيرا عن المحطة ، فحمل « على » الحقيبة ، وسرت بين أبى و « على » سرت أنظر الى الشوارع والمنازل ، وكأنى قد غبت عنها أعواما طويلة وما ان وصلنا الى المنزل حتى استأذن « على » فى الانصراف ، على أن يأتى فى اليوم التالى ، وما كدت أدخل الى المنزل حتى نزلت أمى مسرعة ، وأخذت تقبلنى وهى تنظر الى من خلال دموعها ، ثم صاحت فجأة :



— ما هذا يا ابنتى ؟ .. لقد فقدت كثيرا من وزنك ألم تكونى تأكلين جيدا ؟ .. يا حبيبتى يا بنتى ..

ونبهنا أبى أننا لازلنا نقف على السلم ، ما ان وصلت الى شقتنا حتى أسرعت الى حجرتى ، وشد ما سرنى أن كل شىء فيها موجود كما هو لم يتغير ، فهذه الرسومات والصور التى كنت أعلقها على الحائط تذكرنى بهوايتى لجمع الصور « فقد كنت أزين أركان حجرتى بصور النجوم الذين أحبهم ، وهذا هو سريرى الأحمـــر المزين بالرســـومات الجميلة ، وهذه مكتبتى الصـــغيرة التى كنت قد ابتدأت فى تكوينها قبيـــل ذهابى الى الجامعة ، ان بها بعض الكتب المدرسية والمجلات « والقصص البوليسية المسلية « ان هــذه القصص لم تعد تليق بى الآن ، سأحاول أن أشترى بعض الكتب العلمية والأدبية القيمة التى تليق بفتاة جامعية مثلى « لقد حرصت أمى على أن يكون كل شىء فى مكانه كما كنت أضعه قبل أن أسافر حتى هذا الكرسى الصغير المزخرف الذى أهداه لى جدى فى عيد ميلادى ، كنت أضعه كما هو الآن بجانب النافذة حتى أرتكز عليه عندما أنظر الى الشارع ..

ما ان علم أقاربنا بوصولى حتى جاءوا جميعا لتحيتى ، وامتلأ البيت بالأهل والأقارب والأحباب .. لم تستطع أختى « آمال »

الحضور ، لأنها كما علمت تنتظر مولودها الأول بين يوم وآخر ، وما ان تخلصت من هؤلاء الأقارب حتى أسرعت الى منزل أختى التى لا أستطيع أن أصف مدى ما كان بى من شوق الى رؤيتها ..

كان منظرا غريبا على حقا أن أرى أختى « آمال » وبطنها منتفخ كثيرا ، لم أكن أتصور أن « آمال » ستصبح أما بعد أيام قليلة ، لقد أصبح شكلها الآن كالسيدات تماما ، فالفتاة عندما تتزوج يكسبها الزواج وقارا .. قررت أن أبقى بجوار « آمال » حتى تنجب طفلها الأول .

اننى أشهد بأنه لا توجد فى الدنيا فتاة نومها أعمق وأثقل من نومى ، فلقد استيقظت ذات يوم لأجد « آمال » ترقد فى فراشها وبجانبها طفلة جميلة ولدتها ليلا بينما كنت أنا مستغرقة فى أحلامى ، وكانت هناك أمى ، وزوج أختى الذى قام بنفسه بعملية الولادة . وكدت أطير من الفرح ... لقد أصبحت لأختى طفلة ستناديني عندما تكبر « يا خالتى » . انها صغيرة جـدا وجميلة جدا ، وجهها مستدير وعيناها عسليتان واسعتان وفمها وأنفها دقيقان ؛ برأسها بعض الشعيرات الناعمة .. كل شىء فيها لذيذ ؛ حتى بدت بى رغبة فى أن أقضم يديها الصغيرتين .. آخذت أحدق فى وجه الصغيرة الجميلة وأنا لا أصدق أن هـذه ابنة أختى ، ثم نظرت الى « آمال » وهى تبتسم وكأنها لم تكن تعانى آلام الوضع منذ قليل ، فقلت لها :

— مبروك يا آم « آشجان » .

وكان زوج أختى واقفا بجانبى فصفق موافقا على هذا الاسم وقال :

— ليكن ذلك .. سنسميها « آشجان » تيمنا باسم خالتها الجميـــلة .

وأسرعت أنا الى منزلنا لأخبر أبى بهذا النبأ السعيد .

قررت أمى وهى تقبل الصغيرة أن تقيم « سبوعا » هائلا لحفيدتها ، أما أبى فكان ينظر الى الصغيرة وهو لا يصـــدق عينيه ، وكان لطيفا من « على » أن يحضر ومعه بعض اللعب الصغيرة ، فأخذت ألعب بها بالنيابة عن ابنة أختى .. وفى يوم « السبوع » كنت ألحظ أن « على » يريد الانفراد بى . كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول لى كلاما كثيرا ، ولكنه لم يجـــد الجو المناسب لذلك ، فقد كنت مشغولة باستقبال المهنئين وتقديم مشروب « المغات » الذى يقدم فى هذه المناسبه . اكتظ المنزل بكل أطفال الحى وكباره أيضا . وكان أبى قد أعد الشموع الكثيرة الملونة والشـــيكولاتة ذات البخت والملبس والمكسرات ، كما أحضر « على » زجاجات الشربات ، وأخذت أمى ترش الملح فى جميع الحجرات ، بينما حملت أنا المولودة الجميلة ودرت بها فى أنحاء المنزل وأنا أغنى « حلقاتك .. برجالاتك » والجميع يرددون

معى هذه الكلمات ، حتى أبى نفسه كان يرد على وهو يهتز طربا وكأنه يرقص ، وكان يحدث نفسه بين الحين والحين قائلا « والله كبرت يا حمدى وأصبحت جدا » ثم ينظر الى أمى ويقول « لقد ذهبت أيامنا يا أم « آمال » وأصبحنا عجائز » .

ازدحمت حجرات المنزل الأربع بالمدعوين الذين توافدوا من جميع الجهات ، فبدا « السبوع » كأنه فرح كبير .. وقد رفض زوج أختى بشدة أن ترج طفلته فى هذا الغربال الكبير ، واكتفى بدق الهاون .. ارتفعت الأصوات الصاخبة ، وامتلأت الأرض ببقايا الشموع المحترقة ، ثم خفتت الأصوات شيئا فشيئا ، وانصرف الجميع وبعضهم يمسك رأسه من شدة الصداع ، والأطفال يتعلقون بحقائب أمهاتهم المملوءة بالحلوى . رأيت وأنا أودع المهنئين وأشكرهم « على » يسر شيئا لأبى ، فضحك أبى هذه الضحكة التى يطلقها كلما سمع شيئا يسعده ..

عندما وصلنا الى منزلنا ليلا أنا وأبى وأمى بعد سهرة لطيفة قضيناها مع أختى ، أسرعت الى فراشى وأنا أشعر بتعب شديد وحاجة الى النوم ، ولكن أبى دعانى اليه ، فقمت اليه فى تكاسل شديد .. أخذ أبى ينظر الى نظرة فاحصة أخجلتنى ثم قال :

— العريس مستعجل ، ما رأيك ؟

فأحنيت رأسى فى حياء شديد .

— ماذا تقصد يا أبى ؟ أنا لا أفهم ..

فأمسك أبى أذنى برقة قائلا :

— يا لك من ماكرة .

ثم استطرد قائلا :

— سيأتى « على » غدا لكى نشترى خاتم الخطوبة .

ان هذه الكلمة التى قالها أبى « خاتم الخطوبة » كان لها وقع جميل على نفسى . انها كلمة ساحرة ، لقد أبعدت هـذه الكلمة النوم عن أجفانى طيلة الليل .. سهرت أتخيل نفسى ألبس هـذا الخاتم المقدس ويدى تتألق به ؛ تخيلت صديقاتى وهن يهنئننى والغيرة تظهر فى عيونهن ، وتخيلت المهنئين وهم ينادوننى « مبروك يا عروسة » وتخيلت الأثواب الجمـلية البراقة التى سيشتريها لى أبى بهذه المناسبة .. كان التفكير فى هذه الأشياء الجميلة يسعدنى أكثر من التفكير فى « على » نفسه .

وما ان أشرق صباح اليوم التالى حتى نهضت مسرعة وأخذت أبحث بين ملابسى عن ثوب يليق بهذا اليوم الرائع ، وبلغت الساعة العاشرة وأنا أستعرض ملابسى جميعا ، ولا أستقر على رأى . وكان « على » قد حضر وجلس يتجاذب أطراف الحديث مع أمى وأبى حتى فرغت من ارتداء ملابسى .. وأخيرا ارتديت هذا التايير الأبيض الضيق الذى اشتريته أخيرا .. ان اللون

الأبيض هو اللون المفضل لدى للصباح ، فهو يضفى على الوجه نقاء وروعة ووضعت على رأسى قبعتى البيضاء الرقيقة ، وزينتها بوردة صناعية حمراء صغيرة ، وارتديت حذاء من نفس اللون له كعب عال ، وأنا لا أرتدى الكعب العالى الا فى المناسبات فقط لأنه يضايقنى ويتعبنى كثيرا ، ولا أستطيع أن أسير به بسهولة الا اذا استندت بيدى الى ذراع من يسير بجوارى ، ثم وضعت على شفتى قليلا من أحمر الشفاة الذى أعطته لى أختى « آمال » ، وتعمدت أن أترك خصلة من شعرى تسترسل فوق جبهتى ، وتأكدت من فتنتى عندما نظر الى « على » نظرة مبهورة مليئة بالاعجاب ، ولكنه لم يقل شيئا ، ان عيبه الوحيد أنه لا يمتدح أبدا جمالى أو حتى جمال ثيابى . فمنذ أن رأيته وأنا لا أسمع منه كلمة واحدة يعبر فيها عن اعجابه بأناقتى ، لقد ضايقنى كثيرا هذا التحفظ الشديد حتى أيقنت أنه لا يجيد عبارات الغزل التى يتقنها بقية العاشقين .. لو يعلم الرجل أن كلمات قليلة يرددها لفتاته تسعدها ، وتزيدها تعلقا به ..

كانت أمى معنا ونحن ننتقى الخاتمين ، وبعد أن بحثنا كثيرا اهتدينا أخيرا الى خاتمين رقيقين ، وقد ترك لى « على » حرية اختيار الشبكة التى أريدها ، فانتقيت أسورة ذهبية تشبه الوردة بها ساعة صغيرة ، وكان الرأى الأخير لأمى ، فلم نأخذ شيئا

الا بعد أن وافقت عليه ، وأبدت اعجابها به . كان « على » يريد أن يرضى حماته المقبلة حتى يأمن شرها فيما بعد ، ولو أن أمى تعتبر من أطيب الحموات بشهادة زوج أختى ، فهى سيدة حنون رقيقة القلب ترضيها الكلمة الحلوة ويسعدها المديح . وتركنا الخاتمين لدى الجواهرجى حتى ينقش عليهما اسمينا ..

لم نقم احتفالا بالخطبة ، ولم ندع أى شخص ، بل اكتفينا بسهرة لطيفة فى المنزل ، ثم دعانا « على » أنا وأمى وأبى لقضاء بقية السهرة فى السينما ، ولكن أبى اعتذر بأن لديه أعمالا متأخرة يريد انجازها .. وتعمدت أمى أن تتركنى أجلس بجوار خطيبى فى السينما ، وقد سررت أنا لذلك ، ولكنه للأسف الشديد كان « على » طيلة عرض الفيلم يجلس فى مكانه بأدب جم يتابع حوادث الفيلم باهتمام ، بينما لم أنتبه أنا الى شىء مما كان يجرى أمامى على الشاشة ، بل كان يغيظنى ويحنقنى هذا الصمت المميت .. كنت أنتظر منه أن يهمس فى أذنى بكلمات لذيذة تسعدنى وقد أصبحت خطيبته .. ان التحفظ الشديد بين الخطيبين شىء ممقوت ..

أقبل الصيف .. شهر الشمس والبحر والطبيعة ، وعندما يبدأ الصيف ، وتملأ الشمس الحياة بحبات العرق ، يهرع الجميع الى البحر فيجدون فى مياهه نشوة وانتعاشا ولذة ، فينسون كل شيء الا الاستمتاع بكل دقيقة يقضونها بين أحضان الطبيعة الساحرة .. وكان من عادتنا دائما أن نقضى الأجازة الصيفية فى مصيف رأس البر .. انها أيام سعيدة مرحة تلك التى كنت أقضيها كل عام فى المصيف ، وعندما تنتهى الأجازة ، كنت أودع هذا المكان وبى شوق شديد الى العودة مرة أخرى .. لقد أصبحت رأس البر قطعة من نفسى قضيت بها على شاطئها ؛ وتحت سمائها أمتع أيام الصيفه ، ان لم تكن أمتع أيام الحياة والعمر ، فالحياة تسير فى رأس البر جميلة هادئة وديعة .. وقد استقبلت هذا الصيف بعدة أثواب جميلة مبتكرة ، اشترى بعضها أبى بمناسبة خطبتى ، والبعض الآخر أهداه الىّ خطيبى « على » كما اشتريت « مايوها » أصفر اللون محلى بشريط أحمر يضمه من الأمام .. أخذ « على » أجازته السنوية فى هذا الشهر ليستطيع مرافقتنا الى المصيف ، أما أبى فانه يأتى ليقضى معنا أجازة نهاية الأسبوع ..

كنت أذهب الى الشاطىء صباحا مع « على » بينما تظل أمى بالعشة لتعد لنا طعام الغذاء ، فيضع « على » الشمسية على الرمال فى مكان بعيد عن الأمواج ، ثم نجلس سويا تحتها ، كل منا يجلس فى الطرف الآخر من المظلة ، فيظل يحدثنى عن الأدب . وعن آخر ما قرأه من الروايات ، وعن رأيه فى النقاد والقدامى والمحدثين .. لم نخرج فى أحاديثنا أبدا عن هذا النطاق ، لذلك كنت أهرع الى شلة من الصديقات ، نلعب ونمرح سويا ، تاركة اياه الى واحد من كتبه التى يحضرها دائما معه ، فأنا لم أر « على » أبدا الا وفى يده احدى الروايات أو المجلات ، أو أى شىء يقرأ فيه ، حتى جعلنى أكره الكتب بل أمقتها لشدة تعلقه بها ...

ان هذا « المايوه » الأصفر يثير الاعجاب الشديد ، بدليل هذا الصفير الذى يكاد يخرق أذنى .. أين بوليس الآداب ؟ ولكن لا .. اننى سعيدة . فهذا الصفير يزيدنى ثقة بجمالى .. اننى أرى الفتيات كل واحدة منهن تحاول أن تنال اعجابا أكثر من الأخرى فتتفنن فى ابتكار الجديد من الأثواب والسير بطريقة ملفتة ، حتى الشعر يصففنه بمنتهى الدقة والابداع .. ان هذه المنافسة الخفية بين الفتيات لن تنتهى أبدا ما دام هناك رجال ..

يا لأمى الطيبة ، انها تأتى الينا قبيل الظهيرة ، ومعها طعام

الغذاء ، ان الجو فى رأس البر يجعلنى ألتهم كميات كبيرة من الطعام ، ومع ذلك أشعر دائما بالجوع ، حتى خفت أن يزيد وزنى وأفقد رشاقتى ، ولذلك كنت أمارس الألعاب السويدية الخفيفة كل صباح حتى أحتفظ بأناقتى ..

كثيرا ما كنت أستلقى على الرمال بجانب أمى ، فيظل « على » يحدق فى وجهى وجسدى وهو صامت كأنه فى محراب .. ان أكثر ما يعجبنى فى « على » ويزيدنى شغفا به أنه لا يحاول أبدا النظر الى أية فتاة أخرى مهما بلغت من الجمال والفتنة .. فان أكبر عيب فى الرجل هو عدم اكتفائه بالتفكير فى فتاة واحدة ، فقد قرأت مرة فى أحد الكتب أن الرجل اذا كان يوجد فى الدنيا مائة امرأة وتزوج تسعة وتسعين فانه يظل أبدا يشتهى المرأة الوحيدة الباقية . وكان مما يطمئننى أن « على » ليس هذا الرجل وليس صحيحا أيضا ما يقال من أن الرجال كلهم رجل واحد ، ولكنهم يختلفون فى طبائعهم تماما مثل النساء .

بينما كنت أمرح فى المياه قرب الشاطىء أحسست بشخص يسبح بجوارى ، فحاولت الابتعاد ، ولكننى شعرت بأنه يريد اللحاق بى ، ثم سمعته ينادينى بصوت ليس غريبا عن أذنى فالتفت بسرعة ورائى ، وما ان رأيت وجهه حتى أطلقت شهقة خافتة ، ثم وليت وجهى شطر الشاطىء وأنا أسبح بكل قوتى ؛

ولم أحاول أن أجيب نداءه المتكرر ، واتجهت الى حيث أضع ملابسى ، وارتديت « البرنس » سريعا كأنى أريد الهروب ، ولكنى أحسست به يقف ورائى ، وفى لحظة واحدة وجدت « عصام » يقف أمامى فنظرت اليه بحدة وقلت له :

— ماذا تريد ؟

فقال :

— أشجان . كل ما أريده هو الاعتذار .

— عن ماذا ؟

فأجاب وهو ينفض بيده قطرات الماء التى كانت تتساقط على صدره .

— فى الحقيقة اننى لم أرتكب ذنبا لأننى أحببتك وصارحتك بحبى .. وعلى أية حال ، فاننى سعيد بهذه المصادفة التى جمعتنا هنا حتى أقدم لك اعتذارى .. وكل ما أرجوه هو أن تنسى كل ما قلته لك من قبل وأغضبك .

وزالت عن وجهى قليلا تلك الحدة التى كسته من قبل وقلت :

— أنا أيضا قد نسيت كل شىء .. عن اذنك .. أريد أن أنصرف .

فرمقنى عصام ثم قال :

— ولكن يبدو أنك ما زلت غاضبة .

فابتسمت قائلة :

— لم أعد غاضبة ما دمت قد اعتذرت ، ولكن ضايقنى أننى كنت أعتز بك كصديق ، ولكنك شوهت الصداقة الجميلة التى كانت بيننا .

فأخذ يعبث فى الرمال بقدميه قائلا :

— هل يمكن أن نعود أصدقاء كما كنا ؟ ان هذا يكفينى .

فهززت رأسى وأنا أبتسم موافقة ، فعاودته طبيعته المرحة وقـال :

— اذن ستذهبين معنا غدا ، أنا والشلة سنؤجر قاربا فى النيل تتنزه ونصطاد السمك .. ما رأيك ؟

ولكنى ترددت فى الاجابة فقال مؤكدا :

— سنكون كلنا هنا فى الساعة العاشرة صباحا .. الى اللقاء ..

ثم مضى فى طريقه مسرعا حتى لا يترك لى فرصة للاعتذار ، ولكن لماذا لا أذهب ، انها ولا شك ستكون رحلة ممتعة .. وقفت قليلا أتجاذب الحديث مع بعض الصديقات ، ثم أسرعت الى حيث يجلس « عـلى » فوجدته جالسا تماما مثلما تركته صباحا ، عاكفا على قراءة كتاب جديد .. لمحنى فألقى الكتاب جانبا ، وجلست بجواره وأنا شاردة أفكر .. هل يحب « على » الكتب أكثر منى ؟ لقد أتينا الى رأس البر لنقضى أياما سعيدة

تلعب ونمرح خلالها سويا ، فلماذا اذن هو مشغول عنى ، انه يضايقنى بهذه الكتب التى يحملها معه حتى أن من يراه يظنه أديبا ، وليس مهندسا .. ان تصرفات « على » تبدو أكبر من سنه بكثير ، فهو لم يبلغ بعد الثلاثين من عمره ، ومع ذلك فهو يظن نفسه قد تعدى سن المرح ، وأنه غير لائق به أن يجرى ويلعب مثل الفتيان الصغار كنت أضربه بالكرة وهو جالس حتى يجرى ورائى ، ولكنه لم يفعل أبدا ، بل ينظر الى فى هدوء والابتسامة العريضة تعلو وجهه .. انتبهت فجأة على صوت « على » بجانبى يقول :

— أشجان .. فيم تفكرين ؟

فنظرت اليه وقلت بعد قليل :

— شىء ما يحيرنى .. كنت أفكر كيف يجتمع النقيضان .. الحب وعدم الاهتمام !

فنظر الى وكأنه لا يفهم ما أقصد ، فقلت وأنا أصب غضبى وغيظى فى كلماتى :

— نعم .. انى أراك مهتما بالكتب أكثر من اهتمامك بى .. أنت لا تشعر بوجودى أبدا .

كنت أريد أن أقول له أن به صفة لا توجد فى الرجال ، وهى

البرود ، كنت أريد أن أقول له أكثر من ذلك ، ولكنى كنت أريد أن يفهم دون أن أتكلم ، وأجابنى بابتسامة هادئة :

— انك لا زلت صغيرة يا « أشجان » .. كيف تقارنين بين نفسك وبين الكتب .. ليس هناك وجها للمقارنة على الاطلاق .

فقلت وأنا أرمقه بنظرة غاضبة :

— قل لى .. كم من الوقت أمضيناه هنا منذ الصباح حتى الآن ؟ حوالى أربع ساعات .. أليس كذلك ؟ .. لقد ظللت تقرأ ثلاث ساعات .. هل هذا معقول ؟ .. يجب أن تعطينى وقتك كله ، فنحن نمر الآن بأجمل فترة فى حياتنا .

حاولت أن أثيره بعض الشيء ولكننى لم أفلح ، انه يضع قلبه وأعصابه فى ماء مثلج بينما أنا أكاد أنفجر .. أكاد أجن ، وهو يجلس بجوارى فى هدوء ، لقد أصابنى حبه بالسأم والملل والحيرة حتى خفت أن يفقدنى مرحى ..

وقلت فى آخر محاوله لى فى أن أخرجه عن هدوئه :

— ما رأيك فى رحلة فى النيل لصيد السمك ؟ . سنذهب مع شلة لطيفة من الأصدقاء فى الصباح .

فقال .

— يا عزيزتى .. أنا لا أميل الى مثل هــذه الرحــلات .. تستطيعين أن تذهبى معهم وسأنتظر هنا .

فقلت فى أسى :

— ولكنك يجب أن تصحبنى .

فقال محاولا اقناعى :

— أرجــوك يا « أشجان » .. أنت تعرفين أنى لا أحب التهريج الذى لا تخلو منه مثل هذه الرحلات ..

فقلت فى حدة :

— انك لا تضع لى أى اعتبار .. ألست خطيبتك ؟ وأننا نمضى الآن فترة خطوبتنا ؟

فرد فى ايجاز :

— أشجان . أرجو ألا تسببى لى حرجا ، ولا داعى لهذا الحديث .

أجل .. لم يكن هناك داع لتكرار كلامى ، فلا فائدة من محاولة اقناعه بالعدول عن رأيه ، لقد تركنى أذهب وحدى رغم كل اعتراضاتى .

لقد قضينا معا شهرا كاملا كنت أتوقع أن تحدث فيه أشياء لذيذة مثيرة ، ولكنى أصبت بخيبة أمل كبيرة ثم سافر « على » بعد انقضاء مــدة أجازته ليتسلم عمــله بطنطا ، ووعدنى بأن يكتب لى دائما .

اندمجت مع شلة « عصام » المرحة خصوصا بعد أن لمست روحهم الجميلة فى رحلتى معهم لصيد السمك .. لقد كانوا لطافا ومرحين للغاية ، ورحبوا بانضمامى اليهم ، وكان عددنا ثمانية عشرة ، سبع فتيات والباقى فتيان من أعمار متقاربة ، سرت بيننا روح المودة والألفة ، وجمعتنا صداقة بريئة .. قضيت فى صحبتهم أياما ممتعة مليئة بمرح الشباب وبهجته لم يتركونى أبدا للراحة ولو لبضع دقائق من النهار ، فكل دقيقة من وقتنا كنا نقضيها بين الألعاب المسلية والرحلات ، وقد جمعت هذه الصحبة بين أصحاب الفنون المختلفة العجيبة ، فصديقنا « مشير » شاب فى حوالى العشرين من عمره سمين ، قصير القامة ، خفيف الظل ، وهو يعتقد أن له صوتا جميلا يفوق جميع الأصوات التى يسمعها فى الاذاعة ، ويحاول دائما أن يبرهن لنا على ذلك عمليا ، وعندما لا يجد أحدا منا منتبها اليه فانه يتحول الى المصطافين من الأطفال يغدق عليهم الحلوى حتى يصفقوا له بعد انتهائه من الغناء ، ثم يقول فى صوت عال موجها الحديث الى نفسه : « حقا ان للأطفال آذانا موسيقية مرهفة لا يتمتع بها الكبار ، وهذا هو السبب فى



عدم نجاحى كمطرب عظيم » . أما « نجاة » تلك الفتاة المرحة فانها لا تجيد شيئا سوى الضحك ، فاذا لم تجد ما يبعث على الضحك فانها تحاول تدبير المقالب المضحكة لمن يقع فى الفخ ، ولقد أصبحت أعرف أخبار الرياضة ، وبالأخص كرة القدم أولا بأول من « رشدى » صديقنا الرياضى الذى لا تخرج أحاديثه أبدا عن المباريات الرياضية ، وعدد الفرق التى تكونت حديثا ، وكيف أنه يعتقد أن فريق الأهلى يعتبر أعظم فريق ، ولكنه يحتاج الى كثير من الرعاية ، ولا يمل أبدا الحديث عن الانتصارات التى احرزها فريقه ، وكان يخصنى أنا وحدى بأكثر أحاديثه ، ربما لأنى أجيد الانصات حتى ولو كان محدثى يضايقنى ، ومن أفراد الشلة أيضا صديقتى « فريال » الفتاة اللعوب ، الرشيقة القد ، تهوى لعبة الراكيت لا حبا فى اللعبة نفسها ، ولكنها وجدت أن هذه أحسن طريقة لعرض مفاتن جسدها الممشوق ، فتجدها تقفز وتدور حول نفسها وتجرى فى حركات تمثيلية مفتعلة ، ان « فريال » ليست بالفتاة الجميلة ، ولكن هذه المحاولات والحركات التى تتقنها تثير حولها موجة من الاعجاب والغزل ..
أما « سامى » الشاب الفنان ، فان من ينظر اليه لأول وهلة لابد أن يغرق فى الضحك ، لأنه يريد أن يتشبه بالرسامين القدماء ، فهو يترك شعر رأسه بغير ترتيب حتى أن من يراه يظنه

لم يمشـــطه طيـــلة حيـــاته ، ويطلق لحيـــة صـــغيرة ، ويربى شاربا كثيفا ، وقد لاحظت « نجاة » الماكرة أن شارب « سامى » من الناحية اليمنى أعلى منه من الناحية اليسرى ، فاتخذته مادة للتريقة والضحك ، ان « سامى » رسام مبدع ، ولكنه مغرم برسم الأشياء الغريبة ، فهو مثلا يظل قابعا لعدة ساعات عـــلى الشاطىء ينظر الى البحر منتظرا أن يغرق أحد المصطافين حتى يرسم صورة طبيعية للغريق ، ولكن لله الحمد لم يحقق الله أمنيته طيلة المدة التى رأيته فيها .. وجمعت شلتنا أيضا بين الموسيقى الحالم والخطيب اللاذع ، والبهلوان ، ما ان نظهر صباحا على البلاج حتى نحيله الى هرج ومرج ، فأطلق علينا رواد الشاطىء اسم « المهرجين » .

منذ كنت بالقاهرة ، وأنا أعرف أن « عصام » يجيد السباحة ، ولكنى مع ذلك أكدت للجميع أننى أستطيع أن أسبقه ، وتراهنت معه أمام جميع الأصدقاء على أن يكون غذاؤنا على حسابه اذا تغلبت عليه أنا وسبقته فحبذوا كلهم هذه الفكرة ، وعندما ابتدأ السباق صفقوا لنا ، واصطفوا على الشاطىء يشجعوننى حتى شعرت اننى حقيقة فى مباراة جدية ، فأخذت أدفع المياه بقوة ، ولكن « عصام » كان قد سبقنى بحوالى خمسة أمتار ، ونحن لا زلنا فى البداية ، فلم أشعر الا وأنا أجرى فى المياه ، ونسيت

كل شيء عن قواعد السباحة حتى اختل توازنى فاعترانى خوف شديد ، وقد بعدت عن الشاطىء كثيرا ، فتركت التحدى جانبا ، وأخذت أطلق الصرخات تباعا ، فاستدار « عصام » سريعا ، وفى لحظة واحدة كان بجانبى فحملنى من خصرى بذراع واحدة ، وهنا شعرت بدوار شديد ، أفقت منه فوجدت نفسى مستلقية على الرمال ، والجميع حولى يهزوننى بجزع ، و « عصام » يجلس بجوارى ممسكا بيدى فاعتدلت فى جلستى ، وأنا مشدوهة ، ثم تذكرت ما حدث ، وتذكرت الرهان بينى وبين « عصام » ورأيت الوجوه التى تجمعت حولى فتحاملت على نفسى ، ووقفت برغم قواى التى خارت ، ثم أسلمت قدماى للجرى ، وأنا أسمع ضحكاتهم ورائى حتى اختفيت عن أنظارهم ، واحتجبت تماما فى هذا اليوم لشدة خجلى مما حدث ..

* * *

كثيرا ما كنت أخلو الى نفسى فتتنازعنى أفكار يخيفنى مجرد التفكير فيها ، فأحاول وأتعمد أن أبعدها عن خاطرى ، ولكنى أجد نفسى منساقة الى التفكير فيها تدفعنى اليها قوة طاغية لا أعلمها ، ولا أستطيع أن أقف أمامها أو أسيطر عليها .. اننى حتى لا أستطيع أن أكتب شيئا عما ينتابنى من شعور لأنى لا أريد أن أعترف به ..

كنت كلما عــدت فى المســاء ، واستلقيت على فراشى أظل أستعرض ما اختزنته فى ذاكرتى عما حدث فى يومى .. أفكر فى الطرائف الكثيرة التى حدثت ، واستعرض الأصدقاء والصديقات، وعندما كان يخطر «عصام» ببالى أجدنى مندفعة الى المقارنة بينه وبين خطيبى .. ان « على » خام جدا لا يعرف أبدا كيف يعبر عن شعوره بكلمات مناسبة مثل « عصام » الذى يستطيع أن يوجد لكل مناسبة كلاما حلوا جديدا ، فهو يتمتع بقوة شخصية تجعله نجما مرموقا فى أى مجلس يحل به ، وقد رأيت كثيرا من الفتيات على البلاچ يتغامزن ويتهامسن باعجاب كلما مر أمامهن .. انه يأسر الكثيرات بجمال جسمه ، وقوة عضلاته ، وجاذبية عينيه ، وغروره أيضا ، فهو لا يجلس فى مكان الا وتلتف حوله الفتيات من كل جانب كل منهن تطلب وده ، وكأنه نجم سينمائى ، كما أنى كنت أشعر ببعض السرور والزهو حين أجــد « عصام » يختصنى وحدى باهتمامه الشديد ، ومحاولة الظفر باعجابى ، وكنت ألحظ أنه لا يزال يكمن لى الحب .. مسكين « عصام » كنت أشعر بالعطف الشديد والشفقة عليه ، لأنه لا يزال متعلقا بى ، وكنت أظن أن صدى له سيجعله يترك التفكير فى ، ولكنى كنت أجــده يزداد مع الأيام حبا وشغفا بى .. كنت أريد منــه أن ينسانى ، ولكنى فى نفس الوقت كنت أريد أن يظل على حبه لى ،

ولو أنى لم أكن أبادله نفس الحب ، فكنت أظهر له الود حينا ، وعدم الاهتمام حينا آخر .. كنا نجلس سويا مع أفراد الشلة على ضفاف النيل ، تتجاذب أطراف الحديث ، وكانت كل حركة أو نظرة يأتيها « عصام » تكشف عن حبه لى ، ولكنه كان يكبت حبه حتى لا يفقدنى بعد أن وعدنى بأن نبقى أصدقاء فقط .. اننى لا أحبه ، ولكنى أشفق عليه ، كما أنى كنت أفتقده حين يكون غائبـا ..

* * *

رجعت اليوم الى العشة فجأة فقد نسيت أن آخذ حقيبتى الصغيرة ، ففتحت الباب بسرعة وجريت الى الداخل ، ولكنى وقفت برهة مشدوهة فى مكانى للمنظر الغـريب الذى رأيته فرجعت ثانية الى الخارج بنفس السرعة التى دخلت بها دون أن يشعر بى أحد .. لقد وجدت أبى وهو يحتضن أمى بين ذراعيه ، ويقبلها فى حرارة وشغف ، كيف يحدث هذا ؟ .. لقد تزوج أبى من أمى منذ أكثر من عشرين سنة وكنت أظن أن هذه السنين الطويلة كفيلة بأن تخفف حرارة حبهما ، ولم أكن أتصور أبدا أن هناك أشياء تحدث بينهما ، ولكن هاهما يتعانقان فى لهفة ، وكأنهما لا زالا شـابين صغيرين تسرى فى جسديهما حـرارة الشباب .. لقد أسعدتنى هذه الحقيقة ، وهى أن الحب يمكن أن يدوم بين الزوجين لأعوام طويلة لا ينطفىء فيها لهيبه أو قوته ..

تنبهت من دهشتى على صوت « نجاة » تنادينى وهى تجرى نحوى ، وأخبرتنى أن « مشير » و « عصام » لم يظهرا على البلاج اليوم ، وأنها ذاهبة لاحضار مضارب الراكيت ، ولم تكن الكابينة التى يستأجرها « عصام » ببعيدة عن المكان الذى أقف به فذهبت للسؤال عنه .. أخذت أنادى « عصام » ولكن لم يرد أحد ، ووجدت الباب منفرجا بعض الشىء ، فأطللت برأسى الى الداخل ، وكانت الحجرة مظلمة قليلا ، ثم تبينت « عصام » نائما فوق فراشه ، ولم أجد طريقة لايقاظه سوى قطعة حجر صغيرة رميته بها ، فقام واقفا ، وأسرع بتقديم أحد المقاعد لأستريح عليه حتى ينتهى من ارتداء ملابسه ، فقلت فى صوت مرح .

— ما هذا الكسل ؟ .. ألا تعلم أننا سنذهب الى دمياط اليوم ؟

أسرع « عصام » باحضار كوبين من عصير الفراولة ، وبعد أن أخذت منه الكوب جلس قبالتى وهو ينظر الى بامعان ، وعيناه يخرج منهما بريق لم أعهده فيهما من قبل ، فروعتنى تلك النظرة الرهيبة ، وزاد من جزعى أنه كان ينظر الى وهو صامت لا يتكلم ؛ ولم يرد على كلامى الذى حاولت به أن أنسيه ما اعتقدت أنه يفكر فيه فى تلك اللحظة ، ورأيته يقترب منى ، فوقفت بسرعة وهممت بالانصراف ، ولكنه أمسك بى فجأة ، فرميت الكوب

على الأرض وهى مملوءة ، وتخلصت منه ، وفررت من أمامه ، فجرى خلفى حتى أدركنى قبل أن أدرك الباب الخارجى ، وحاول أن يضمنى اليه وهو يرسل زفرات محمومة .. قاومته بشـــدة وعنف ، وأخذت أضرب فى صـــدره بكلتا يداى حتى خارت قواى ، وفقدت القدرة على المقاومة ، كما أن شيئا بداخلى كان يدفعنى للاستسلام ، فاستطاع هو أن يتغلب على ؛ ويحتوينى بين ذراعيه القويتين ؛ وعند ذلك استسلمت لعناقه وأنا أرتعش وأنشج بالبكاء ..

هذا ما كنت أخشى حدوثه ، ولكنه حدث ، وكان لابد أن يحدث فى يوم من الأيام ، لقد كنت أصارع هذا الشىء فى داخلى الذى يدفعنى الى الاهتمام والتعلق « بعصام » ، وكنت أحاول أن أكبت هذا الشعور الذى بدأت أشعر به كلما رأيته ، وكنت أظن أننى قادرة على المقاومة ، ولكن مقاومتى قد انهارت تماما بعد أول عناق .. وبعد أول قبلة .. لقد بات قلبى يخفق بالحب الذى طالما أنكرته عـــلى نفسى .. يقولون ان المرأة قد تسمو بنفسها عن صغائر البشر ، ونواحى ضعفهم ، حتى تصل الى مراتب القداسة ، ولكنها ما ان تفطن ولو للحظة واحدة خاطفة الى أنها من البشر ، حتى تهوى من علياء قداستها .. هذه هى الحقيقة المريرة التى أشعر بها الآن .. اننى أحتقر نفسى التى سولت

لى الاندفاع وراء الغريزة .. لقد اندفعت أمـام تيـار عنيف لا أستطيع الصـمود أمامه .. وتعددت مرات لقائى به حتى لاحظ الجميع غيابنا أنا و « عصام » ، وتعمدنا الاختفاء عن أنظارهم ، ولكن فى غمرة سعادتى بلقائه بعيدا عن الجميع ، كانت هناك هوة غامضة مفعمة بالظلام لا تلبث أن تنبعث فى أعماقى فأجد نفسى تائهة حائرة ، أحاول وأريد أن أهرب من ذلك المصير المجهول الذى ينتظرنى ، ولكن كل ساعة تمر بى كانت تزيدنى شعورا بالوحشة ورغبة فى لقائه ، فلا أفكر فى شىء سوى اللحظة التى أعيشها .. أجل ان الشوق يستبد بى ويكاد يفترس أعصابى ويؤرق جفنى ؛ ويحرمنى الهدوء ، فتبينت أنى أحبه رغم كل شىء ..ولكن .. كيف أحب رجلين فى وقت واحـد ؟ .. كيف يتسع القلب للجمع بين نوعين مختلفين من الحب ؟.. حب خطيبى ، هذا الحب الهادىء العميق ، وحبى « لعصام » الجارف العنيف .. كان هناك صراع هائل بين قلبى وعقلى ، فقلبى يقودنى بشدة نحو « عصام » ، أما عقلى فانه لا يجد خيرا من « على » وكنت لا أستطيع آن أخمد خفقان قلبى ..

لاحظت أمى ما أنا عليه من اضطراب وحيرة ، وحاولت بشتى الوسائل أن تعرف ما جعلنى دائما ساهمة شـاردة ، ولكننى لم أجسر أبدا على مصارحتها بشىء .. ثم ماذا أقول لها ؟ .. هل

أقول لها انني قد أحببت شخصا آخـــر غير خطيبى ؟ .. انني لا أستطيع مواجهتها حتى لا أنهار أمام نظراتها الخبيرة فأبوح بهذا السر المخجل ، انني أخجل من نفسى ، فكيف اذن أتكلم ، وما عساى أن أقول ؟ .. كانت هذه هى أول مرة أخفى فيها شيئا عن أمى ، ولكنى كنت أشعر أنها تعرف كل شىء .. كانت حركاتى تفضحنى ، ونظراتى تفصح عما كان يجول فى نفسى .. لم أكن أعرف ما ستكون عليه النهاية ، نهاية علاقتى « بعصام » التى كانت تتطور وتزداد مع الأيام .. كل ما كنت أعرفه هو أننى حينما أكون بجواره لا يهمنى أى مبدأ ، فأترك جانبا كل ما نشأت عليه من احترام للتقاليد ، وأنا أستمع الى حديثه العذب ، فاستطاع بكلماته الملتهبة أن ينسينى كل شىء عن « على » . لقد جعلنى أشعر بشبابى المتفتح الناضر كما لم أستشعره من قبل .. لقد أمضيت معه أسعد لحظات حياتى ، دون أن أحاول أن أســأله عن حقيقة موقفى منـــه .. لقـــد كانت أحاديثنا كلها حبا وهمسا ونجوى ، وأوقاتنا كلها نزهات هانئة فى ضوء القمر ، فكنت ألعب وأمرح ، وأنا لا أعرف ما تخبئه لى الأيام ، وقد حاولت مرة أن أستدرجه الى الحديث لأقف على ما يدور بخاطره حيالى ، وهل هو يحمل لى شعورا صادقا ، يجعله يتمسك بى ولا يتخلى عنى مهما حدث ؟ أم أنه يتخذنى مجرد وسيلة للترفية فى هـــذا

الجو الحار ؟ .. وبينما كنت أجلس بجانبه على الرمال أنظر اليه في اعجاب ، وقد اكتسب جسمه بفعل البحر والشمس لونا نحاسيا ساحرا يلمع في وهج الشمس كالمرآة ، فقلت بصوت رقيق وأنا أميل عليه .

— هل تحبني حقا ؟

واقترب مني أكثر فقلت له :

— يجب أن تفكر يا « عصام » .

قاطني بسرعة قائلا :

— ولماذا التفكير .. انه يجلب الضيق من غير فائدة .. يجب أن نتمتع بكل دقيقة وبكل لحظة من حيــاتنا قبل أن يسرقنا العمر .. أنا أعبدك يا حياتي ..

لقد كاد ينسيني ما كنت أريد أن أقوله ، فأشرت الى خاتم الخطوبة في اصبعي وقلت :

— ألم تر هذا ؟

— بلى .. انني أتمنى أن أفتح عيني وأغمضها ، فأجد مكانه هذا خاتما يحمل اسمي أنا .. أنا أترك تحقيق هذه الأمنية للأيام يا « أشجان » ان لدي شعورا قويا بأنك ستكونين لي في يوم من الأيام ..

وشرد قليلا ثم قال في حدة :

— لو أننى رأيت خطيبك هذا لكسرت رأسه .. أقتله ، أو أتخلص منه بأية طريقة .

عندما سمعت كلامه هذا نظرت بحقد شديد الى يدى اليمنى ، فشعرت أن هذا الخاتم انما هو قيد حديدى يضايقنى ويحبس أنفاسى ، ووددت لو تخلصت منه وألقيته بعيدا ليختفى مع الأمواج حتى أرضى الرجل الذى أشعر بجانبه اننى قد ملكت جميع الرجال ، ولما وجدت التجهم باديا على وجهه ، حولت مجرى الحديث حتى لا أبعث فى نفسه الضيق أكثر من ذلك ، يكفينى اننى تأكدت أنه يحبنى ويتمنى الزواج بى ، لقد قال لى ان لديه شعورا قويا بأننا سنكون معا فى يوم من الأيام .. ما أسعد الفتاة التى تشعر أنها قد فازت بقلب رجل تعشقه الفتيات ويتمنين صحبته ، فتشعر بلذة النصر التى لا تعادلها لذة أخرى ..

انقضت الاجازة الصيفية بأيامها الساحرة سريعا وبدأ الشاطىء يخلو من رواده شيئا فشيئا ، تاركين آثارهم على الرمال الصفراء الناعمة .. ان منظر البلاچ وقد خلا من المصطافين يشعر الانسان ببعض الوحشة ، وقد بدت مياه البحر راقدة حزينة لفراق وجوه حبيبة كانت بالأمس تداعبها وترتمى فى أحضانها ، تهب المياه فجأة كأنها تنادى من تركوها ، ثم تستكين ثانية على أمل أن تراهم مرة أخرى عندما ينتهى الخريف والشتاء ويقبل الصيف فتملأ الشمس الحياة بحبات العرق ، ويهرع الناس الى البحر ، ملاذهم الوحيد ..

وصلت « طنطا » بعد مغادرتى لرأس البر بالأمس ، وبعد أن ودعت جميع الأصدقاء والصديقات الذين تعرفت عليهم فى المصيف على أن ألقاهم جميعا بالقاهرة .. لم تبق سوى أيام قليلة على افتتاح الكلية ، وهأنذا أشعر بالوقت يمـر متكاسلا فى بطء شديد ، وكأنى أريد أن أسبقه لأجد نفسى سريعا هناك فىالقاهرة حيث ينتظرنى « عصام » .

دق جرس المنزل فهرعت الى الباب ، وفتحته فوجدت أمامى شخصا كنت بالأمس القريب أتلهف الى رؤيته ، وعندما كنت أفتح الباب لأجده أمامى ، كانت دقات قلبى تعلو وتعلو حتى تكاد تصل الى أذنى ، فأجرى الى الداخل وأنا أخشى أن يكون قد سمع تلك الدقات السريعة ، أما اليوم فانى أقف أمامه جامدة وكأنى أراه لأول مرة . نظرت اليه فى برود ، ورأيته يمد يده نحوى فاسلمت له يدا باردة كما لو كان شخصا غريبا وبعيـدا عنى كل البعد ، وليس خطيبى الذى كان بالأمس كل شىء فى حياتى . لم تتحرك أية شعرة من جسدى لرؤيته ، ولاحظ هو البرود وعدم الاهتمام الذين قابلته بهما فاضطرب بعض الشىء ..

وأقبلت أمى ترحب به وتستقبله ، فخلصنى هذا من الضيق الذى انتابنى ، فتركتها وجريت مسرعة الى الداخل ، وأنا فى حيرة من أمرى . كيف يتحول قلبى سريعا هكذا .. ؟ يا لقلبى المتقلب الذى لا يستقر .. ولكن كل ما يهمنى الآن هو أننى أحب « عصام » حبا لا يترك مكانا فى قلبى لحب شخص آخر ، لقد تأكدت من ذلك عندما رأيت « على » . ولكن .. هل يمكن أن أنسى فى يوم من الأيام حبى « لعصام » مثلما فعلت مع « على » ؟ . لا .. مستحيل ان حنينى وشوقى اليه يؤكدان لى أن حبه أقوى من أن ينسى .. اننى تسرعت فيما قبل فى حكمى على ما كنت أشعر به نحو « على » لقد كنت صغيرة ، ولم يكن فى حياتى أحد ، وكان « على » هو أول رجل اختلط به وأتكلم معه ، فكان من الطبيعى أن يتعلق به قلبى ، ففرحت بخطبته لى كأى فتاة تحلم بأن يقام لها حفل عرس كبير ، وبأن يكون لها بيت هى سيدته وأطفال لطاف ينادونها « أمى » .. هذا ما كنت أصبوا اليه ، فتخيلت « على » فتى لأحلامى ، ومحققا لكل ما اتمناه .. ثم ان « على » نفسه لم يعرف كيف يحتفظ بى وبحبى له ..

جلست أمامه صامته لا أتفوه الا بكلمات قليلة مقتضبه استطعت أن أتنفس بارتياح عندما استأذن للانصراف ، ولاحظت مى أو ربما أخبرها هو بما أصابنى من برود وعدم اكثرات

فوبختني ولامتني على استقبالى الفاتر لخطيبى ، ولم أجد تعليلا مناسبا أجيبها به فلبثت بحجرتى ، وأنا أنتحب بصوت خفيض حتى لا يسمعنى أحد .. ولم أجد من أستطيع أن أشركه معى فى اخراجى من حيرتى سوى « آمال » لعلها تستطيع أن تجد لى حلا يخلصنى من تلك الأفكار المتضاربة التى تملأ رأسى حتى يكاد ينفجر ..

استقبلتنى « آمال » بفرح بالغ ، وقادتنى الى حيث ترقد طفلتها الحبيبة ، انها الآن فى الشهر الثالث من عمرها ، وجدتها فى فراشها الصغير ، وحولها اللعب من جميع الجهات ووجهها المشرق يذكرنى بصورة جميلة لأختى وهى صغيرة .. ان الذى يدخل الى شقة أختى ، ويرى ما بها من أثاث يحس بالراحة والانتعاش ، فهو أثاث يجمع بين البساطة ، والأناقة والخفة ، ولا يخلو أى ركن فى الحجرات من الفازات الجميلة والورود الزاهية موضوعة بشكل منسق ، والستائر بديعة التكوين .. كل شىء جميل أنيق بغير تكلف ينطق بالفن الأصيل ، والذوق الرفيع ، ويزيد من جمال هذه الجنة الصغيرة زوجة عاقلة تعرف واجباتها ، وتحب بيتها وتقدس زوجها . وطفلة حلوة خفيفة الظل توثق الرابطة بين الأب والأم ، أما الزوج فانه يعمل ويعمل ليوفر لأسرته الحياة الكريمة السعيدة التى يرجوها كل أب وزوج محب ..

جزعت « آمال » وحزنت كثيرا عندما أخبرتها بكل ما حدث دون أن أخفى عنها شيئا فلقد تعودت منذ صغرى أن أطلع أختى على كل ما يدور بنفسى من مشاعر ، وما يواجهنى من مشاكل ، فكانت دائما توجهنى بحكمه لما امتازت به من عقل ناضج وتفكير سليم .. ظلت تحملق فى وجهى غير مصدقة ، ثم صاحت فى وجهى :

— ماذا حدث لك ؟ .. كيف تتكلمين ببساطة عن موضوع خطير كهذا .. تتركى خطيبك ؟ .. لابد أنك قد جننت .

فقلت باصرار :

— « آمال » أنا فكرت كثيرا ، وانتهيت فعلا الى حل واحد هو أنى يجب أن أترك « على » ولكن كيف أتركه ؟ .. هذا ما جئت لك من أجله ..

ثم استطردت فى رجاء :

— أرجوك أن تكونى فى صفى يا « آمال » ، وأن تخبرى أبى أنى لا أريد الزواج الآن ، كما أنى لست متفقه مع « على ».. أرجوك فأنا لا أستطيع أن أواجهه بهذا الكلام .

فقالت ووجهها ينم عن الأسى الشديد :

— ألم تفكرى للحظة واحدة فى أن « على » شقيق زوجى ؟ فقلت وأنا أحس بالأسف الشديد :

— ان زوجك عاقل وطيب ، ولا يمكن أبدا أن يتأثر من ذلك واستطردت « آمال » فى محاولة يائسة :

— اذا لم تفكرى فى أنا ، فكرى على الأقل فى أمك . وكيف سيكون وقع هذا الخبر عليها وعلى أبيك .

فقلت محاولة أن استجدى عطفها :

— ولكنى أحب « عصام » ولا أستطيع أن أتركه . فأمسكتنى من ذراعى بشدة وقالت :

— انك لا تستحقين رجلا مثل « على » ، فهو يريد زوجة عاقلة ناضجة ، وأنت لا زلت صغيرة ومتهورة .

ولم أجد طريقة لكسب عطف « آمال » سوى البكاء فبكيت ، تماما كما كنت أفعل ، ونحن صغار ، عندما كنت أريد منها شيئا ، وفعلا ربتت « آمال » على كتفى ، ووعدتنى أن تصارح أبى بالأمر ، وأن تحاول اقناعه .

وسرت فى الطريق الى المنزل وأنا خائفة ، ارتجف ، وأخمن ما سيحدث عندما يعلم أبى بالأمر .. انه يحب « على » كثيرا ويحترمه ، لابد أنه سيثور ويتوعد ؛ وربما اتخذ قرارا خطيرا يطيح بسعادتى ..

مر يومان قبل أن تخبر « آمال » أبى بشىء ، كنت فيهما أفكر وأفكر هل أرجع عن قرارى وأرضى بما كتب لى ؛ فأنا

لا أحب أن أكون سببا فى المتاعب ، كما أنى — لو وافق أبى — سأكون هدفا للشائعات بين الصديقات والأقارب ، فنحن لا زلنا نعتبر فلاحين متمسكين بالتقاليد ، وفسخ الخطوبة عندنا يعتبر عيبا كبيرا بالنسبة للفتاة ..

بينما كنت جالسة الى مكتبى فى المساء أدون بعض المذكرات ، وكان أبى لم يحضر بعد ، وكانت أمى تقوم بتجهيز العشاء مع الخادم ، فحضر أبى فجأة مبكرا قليلا عن موعد قدومه ، فأسرعت باخفاء المذكرات بين أحد الكتب الكبيرة ، وكان وجه أبى هادئا كالعادة ، فاسترحت لأنه لم يعلم بعد بشىء ، كنت أريده أن يعرف ، ولكنى كنت خائفة من ثورته وغضبه .. فتحت فمى فى دهشة عندما نظر الى أبى بحنان بالغ ، وهو يقول :

— « أشجان » لماذا يا ابنتى لم تخبرينى أنك لست موافقة على الزواج من « على » ؟ .. ان كل شىء قد تم برضاك .

ولم أجد ما أجيب به عليه سوى الصمت .. نعم لقد تم كل شىء برضائى تماما كما يقول أبى ، ولكن هذا كان بالأمس ، ولم أكن قد رأيت « عصام » أو أى رجل آخر غير « على » فتوهمت أنى أحبه ، ولكن كيف أقول لأبى هذا الكلام ، كما أن الآباء لا يعترفون أبدا بالحب .. انتظر أبى أن أجيب عليه بشىء ، ولكنى لم أنطق بكلمة واحدة ، وشعرت بالاطمئنان لأن أبى

لم يغضب كما توقعت ، ولم يثر فى وجهى برغم التعبيرات الأليمة التى ارتسمت على وجهه ، قال فى صوت حكيم :

— أنت الآن فتـــاة مثقفة ، ولست صغيرة ، ولك حــرية التصرف فى حياتك .

ثم سكت قليلا واستطرد قائلا :

—كل ما أنصحك به يا ابنتى أن تتريثى وأن تحكمى عقلك فى كل خطوة تقدمين عليها ..

ان أبى ينصحنى أن أحكم عقلى » ولكن أين عقلى الآن ؟ ان عواطفى هى التى تتحكم فى تصرفاتى ، وهذا شىء يخرج عن طاقتى .

لقد أسفت بعض الشىء من أجل « على » لأنى تأكدت أنه كان يحبنى حبا عميقا قويا ، لقد كاد يبكى ، وهو يخبر أبى أنه كان يعيش فى انتظار اليوم الذى سيضمنا معا فى عش واحـــد بالرغم من أننى لم أعد أحبه » الا أن الدموع طفرت من عينى لسماع هذا .. لقد كان مخلصا وفيا لعهدى ، وكنت أنا الغادرة التى حطمت قلبه ، وأطاحت بسعادته .. لقد دعوت الله كثيرا أن يجد « على » الفتاة التى تحبه وتنسيه ما كان من تنكرى له .. أصبحت أشعر أننى مسئولة عن تعاسة شخص عزيز كنت أتمنى

رضاءه فى يوم من الأيام فاذا بى اليوم أكون سببا فى شقائه » ولكن الأيام كفيلة بأن تنسيه ما كان ..

بعد مرور أسبوع على فسخ خطوبتى لعلى أصبح كل شىء هادئا ، وكأن لم يحدث شىء ، فقد استطعت أن أقنع أمى بوجهة نظرى فهى الوحيدة التى حزنت كثيرا وثارت على أنا وأبى ، واعتبرت تصرفنا هذا جنونا ، خصوصا وأن « على » هو شقيق زوج أختى ..

أسرعت بكتابة خطاب الى « عصام » أخبره فيه بأننى قد أصبحت حرة ، وبأننى أعد الأيام والساعات التى بقيت على افتتاح الكلية لأكون بجانبه .. وتخيلت « عصام » وهو يقرأ الخطاب ويكاد يطير من الفرح ، لا شك أنى سأكون أسعد فتاة فى العالم حينما يتقدم « عصام » لطلب يدى من أبى ، اننى أشعر بتيار لذيذ يسرى فى جسدى كلما تصورت نفسى زوجة لعصام ، هذا الفتى الساحر معبود النساء ..

— ١٠ —

وصلت اليوم صباحا الى بيت الطالبات ، وكنت فى غـاية السعادة والتشوق لرؤيتا من أحبهم .. فى السنة الماضية وفى مثل هذا الوقت حضرت الى هنا ، وأنا خائفة ، وجلة من هذه الحياة الجديدة الغريبة التى ستواجهنى ، أما هذه السنة فقد قدمت وكلى بشر وتفاؤل وأمل فى قضاء أيام مرحة مسلية ، أتلهف على الذهاب الى الكلية حيث الصـديقات والأصدقاء ، وأحاديثهم اللطيفة ، وبوفيه الكلية ، والندوات الخفيفة التى كنا نعقدها فيه ، والنادى والمباريات والمسابقات الرياضية .. هـذه الحياة المليئة بالمرح ، ومباهج الشباب أصبحت أعشقها وأتوق اليها ..

كانت « دلال » تنتظرنى بمحطة السكة الحديد ، انها كما عرفتها دائما مرحة جذابة ولعوب أيضا ، تضحك لمن يعرفها ومن لا يمت اليها بصلة ، تضحك دائما من قلبها ، كأنه ليس هنـاك ما يستحق الجد أو القلق فى هذه الحياة ، سرت معها وأنا أحس بأنى لم أفارقها طيلة الأجازة ، وكأنها كانت معى دائما ، وما أن وصلنا الى بيت الطالبات حتى أخذت القبلات تنهال على وجهى من الصديقات ، وبعد أن تبادلت معهن آخر الأخبار ، وكيف

قضت كل منا الأجازة ، صعدت الى غرفتى ، ورتبت ملابسى بينما كانت « دلال » تقص على ما حدث لها مع شباب المنصورة وكيف أنها تركتهم جميعا مكسورى القلب ، وكيف أنها لم تجد فيهم شخصا واحدا يملأ العين .. لم أعد أستغرب أحاديثها تلك بل أصبحت أستمع لهذه المغامرات ، وكأنها شيء عادى جدا ، كما أننى أنا الأخرى أصبحت لى مغامرة غرامية ، ولكن الفرق بينى وبين « دلال » هو أنى أنظر الى علاقتى بعصام نظرة جدية ، فأنا أحبه لأتزوجه ، لا لأمرح معه بعض الوقت ، ثم أتركه لأبحث عن آخر مثـل « دلال » ولم أشأ أن أخبرها بشيء عن علاقتى بعصام ، وعمـا حدث فى رأس البر سوى أنى قد خطبت ، ولم تستمر مدة الخطوبة كثيرا ، فاستغربت « دلال » كثيرا لأنها كانت تعرف مقدار حبى « لعلى » ، فقد كنت أحدثها عنه كما أنها كانت ترى خطاباته لى ، ولكنها لم تعلق على هذا الموضوع ، أو تستفسر عن السبب ، خشية أن تسبب لى أى ألم ..

ذهبت الى النادى وكلى أمل فى أن أرى « عصام » وفعلا وجدته جالسا وسط شلة من أعضاء النادى ، وهم يضحكون ويتبادلون القفشات .. وما ان أقبلت عليهم حتى وقف الجميع لتحيتى ، فجلست بينهم ، ولم أستطع فى ذلك اليوم أن أتبادل معه أى كلام سوى الحديث العادى نظرا لجلوس الأصـدقاء

معنا ، ثم استأذنت منهم بعد وقت قصير ، وكنت أظن أنه سيأتى ورائى ، فوقفت قليلا خارج النادى أنتظره ، ولكنه لم يأت ، فمضيت فى طريقى وأنا أشعر بالضيق لأنى كنت آمل فى لقــاء حار ، وجلسة شاعرية ، ولكن كان لقاؤنا فاترا على غير ما توقعت ، وكانت نظراتنا بغير معنى .. وقد مرت أيضا خمسة أيام على هذا اللقاء لم يحاول فيها أن يتصل بى ، ولكنى انتحلت له الأعذار ، فربما كانت لديه أعمال عطلته فهو يعمل فى شركة للمقــاولات يديرها والده .. انتظرت أن يتصل بى تليفونيا على الأقل ، ولكنه لم يفعل ، انى متأكدة أنه لابد مشتاق الى ، والى الحديث معى .. اذن ما الذى منعه من الاتصال بى طيلة هذه المدة منذ أتيت الى القاهرة ، انها مدة قصيرة ولكنها مرت على كأعوام طويلة لأنى كنت أنتظر ، وأشق شىء على الانسان هو الانتظار ، فقررت أن أقطع الشك باليقين واتصلت به تليفونيا فى مكتبه ، فقيل لى أنه لا يزال فى أجازة انها شركة والده ، ولذلك فهو يأخــذ الأجازات كما يشاء ، اذن فليس هناك عمل يشغله عنى ، ولكن مع ذلك أصررت على أن هناك شيئا قويا مثل المرض منعه عنى ، خصوصا وأنى لا أراه أيضا فى النادى .. كانت تراودنى فى ذلك الوقت خواطر فظيعة لا أريد تصديقها ، هل يمكن أن يكون هناك شىء قوى الى هذا الحد الذى ينسيه اياى ، ألم يعد يحمل لى هذا الحب القوى الذى يدفعه للسؤال عنى ؟ لا .. لا يمكن أبدا

أن يكون قد نسى الأيام الجميــلة التى أمضــيناها ســويا فى رأس البر .. ان ذكرى هذه الأيام السعيدة لا تزال تملأ قلبى بالنشوة ، والسعادة .. اتصلت به بعد ذلك بالمنزل ، فردت على فتاة بصوت مائع ، أظن أنها الخادمة ، وأجابت بأنه موجود ، وبعد برهة رد « عصام » ولم أشأ أن أعاتبه فى التليفون ، فأخبرته أنى سأنتظره فى النادى فى صباح اليوم التالى ..

صحوت مبكرة فى ذلك اليوم ، وكنت أنوى الذهاب الى الكلية أولا لحضور محاضرة فى الثامنة صباحا ، ولكنى خفت أن أتأخر عن موعد « عصام » فعدلت عن الذهاب الى الكلية على أن أنقل المحاضرة من احدى الصديقات ، فأمضيت الوقت فى تمشيط شعرى وتنسيقه ، ولم أجد لدى حقيبة مناســبة للصباح ، فعرجت فى طريقى الى النادى ، على أحد المحــلات ، واشتريت حقيبة أنيقة مصنوعة من الخوص المزخرف ، حملتها فى يدى ، وذهبت الى النادى ، فوجدته جالسا الى احدى الموائد ينتظرنى ، فشعرت بقلبى يخجل فى صدرى ويقفز من السعادة ، وهو يضحك لى ضحكته الساحرة ، كانت نظراته من بعيد تقول لى أنه سيصارحنى برغبته فى الزواج منى ، انه جرىء وصريح ، وسيمسك بيــدى بين يديه ثم يقــول لى فى كبــرياء لذيذ ، « أشجان » هل تقبلين الزواج منى ؟ وسيحمر وجهى خجلا ،

فأخفض رأسى ، ولن أتكلم وطبعا سيذهب هو ووالده الى أبى يخطبانى منه ، وسيوافق أبى وستفرح أمى عنـــدما تعلم أن « عصام » ثرى جدا ، وأن أباه من كبار رجال الأعمال ، وبعد أن تعلن خطـــوبتنا ستشعر جميـــع الفتيـــات بالغـــيرة الشديدة وسيحسدننى لأننى فزت دونهن جميعا بقلب الفارس الجميـــل المغرور ، ولا شك أن نبأ خطبتنا سيكون خبر الأسبوع فى جميع المجلات لأن « عصام » نجم رياضى مرموق ، كما أن حفلة زفافنا ستكون حديث المجتمع ..

جلست أمامه ، ولم أتكلم كثيرا ، وتعمدت أن أتركه هو يتكلم ، ويقول كل شيء كان يريد أن يقوله لى طيلة هذه الأيام التى لم أره فيها .. ولكن لم تمض سوى لحظات قصيرة على جلستنا الهادئة ، حتى أقبل « فهمى » أحد الأصدقاء ، وجلس معنا ، فلعنت فى نفسى اللحظة التى أتى ورآنى فيها ، ان « فهمى » شاب لطيف جدا . ولكنه بدا لى فى هذا الوقت ثقيلا جدا ، كان أثقل على نفسى من الضيق نفسه .. ولم يبد على « عصام » أنه تضايق من وجوده ، بل راح يسأله عن حوض السباحة الجديد الذى سيلحق بالنادى ، وكيف أنه سيزيد من عدد الأعضاء فى النادى ، وفجأة لمحت فتاة شقراء تدلف من الباب الأمامى ، وتسير بطريقة ملفتة ، وما ان رأت المائدة التى نجلس عليها حتى أقبلت

مسرعة ، ووقفت خلف « عصام » ثم وضعت يديها فوق عينيه كأنها تعرفه جيدا ، ثم ضحكت بصوت مرتفع ، فالتفت « عصام » سريعا ناحيتها ثم وقف ، ورحب بها ترحيبا بالغا ، ثم قدمها لنا قائلا :

— الآنسة « سحر » الطالبة بالجامعة الأمريكية ، وعضوة جديدة فى النادى .

ثم قدمنى لها ، فمدت لى يدها باستهتار ملحوظ ، ولم تكد تجلس حتى قفزت ثانية من مكانها ، وقالت لعصام بالانجليزية (أفضل أن نبتدىء الآن فى التمرين) ثم ضحكت فى اغراء ، وأمسكت بيد « عصام » ، ولم يتردد بل استأذن منا ، وذهب معها الى الملعب ، وتركنى جالسة مع « فهمى » وأنا حانقة على هذه الفتاة الجريئة الوقحة ، وحانقة أكثر على « عصام » الذى كان يبدو عليه أنه سعيد لرؤيتها ، أخذت أتابعهما بنظرى وهما يلعبان ، ورأيتها وهى تميل عليه ، وهو يعلمها كيف تمسك بالمضرب ، وكانت تتعمد أن تخطىء مسكه عدة مرات ، كان هذا يحدث أمامى ؛ وأنا أكاد أتميز من الغيظ .. لقد رأيت « عصام » يلعب مع الكثيرات من قبل ، ولكنى خفت من تلك الفتاة بالذات ، انها من هذا النوع الخطير المدمر ، فخفت أن تستولى على « عصام » ثم لماذا اختارته هو بالذات ليدربها ؟ أليس هناك

مدربون فى النادى غيره ؟ .. أم أن هذه مجرد حجة لاخفاء ما بينهما ، فطريقة كلامهما معا تدل على الصداقة الوثيقة التى تجمعهما ، وربما أشياء أكثر من الصداقة .. لم أع أى كلمة مما كان يقوله لى « فهمى » الذى كان جالسا بجوارى على المائدة ، ولكنى تنبهت على صوته وهو يدعونى للعب معه على مائدة تنس الطاولة ، فقمت وأنا متثاقلة مهمومة كأنى قد فقدت حيويتى ، وأخذت ألعن الأحداث التى تأتى دائما بعكس ما كنت أشتهى .. أمسكت المضرب ، ويداى ترتعشان فى عصبية ظاهرة ، ولم أستطع أن ألعب جيدا ، فاعتذرت بأن لدى محاضرة ، وكأن « فهمى » كان يفهم ما أعانيه وقتها ، فنظر الى بعطف وحيانى على أن نلتقى غدا لمواصلة اللعب .. نظرت الى ناحية « عصام » فوجدته لا زال يلعب مع الفتاة الشقراء ، وهى تتلوى وتتثنى كالأفعى ، ولقد نجحت فعلا فى أن تلفت أنظار الجميع اليها بحركاتها التى تبعد كثيرا عن غرض التمرين الرياضى كما تزعم .. أنا لا أستطيع أن أنكر أنها جميلة وجذابة ، ولكنها خليعة ومستهترة ، رأيت الأنظار كلها تتجه اليها ، فأحسست بأننى بجانبها سأكون لا شىء ، فهممت بمغادرة المكان ولكنى وقفت ؛ واستجمعت رباطة جأشى ، وصحت منادية « عصام » .

— « عصام » انى ذاهبة .

فماذا كان رده على ؟ .. لقد قال فى بساطة وببرود ، وهــو يقذف الكرة دون أن ينظر ناحيتى :

— مع السلامة .. سأراك غدا .

لقد فوجئت برده البارد ، وشعرت كأنى طعنت طعنة قاسية فاتجهت مسرعة الى الخارج ، وأنا أكاد أبكى انه لم يعد يهتم بى .. انه لم يكن جافا فى معاملتى مثل هذه المرة .. لقد كان يفضل البقاء بجوارى أطول مدة ممكنة ، وكان يخصنى باهتمامه الزائد دون سائر الفتيات ، وخصوصا فى رأس البر ، لقد كان يلاحقنى فى كل مكان أذهب اليه .. فهل استطاعت هذه الفتاة اللعوب أن تنتزع اهتمامه منى .. ولكنى لن أتركها تفعل ذلك أبدا ، ان الغضب والغيرة سيفقدانى « عصام » لذلك فقد صممت عــلى ألا أظهر غضبى و حنقى على تصرفاته الجديدة معى ، حتى أجعله يجرى ورائى ويستجدى حبى كما كان يفعل من قبل .. كنت أبرر انصرافه عنى فى المدة الأخيرة بشتى الأعذار ، ولكنى فهمت أخيرا السبب فى تحوله ، ان « سحر » جميلة حقا ، ولكنها ليست أكثر جاذبية منى ، أما الذى يجعلها أكثر ســحرا فهو طريقتها الاباحية فى ارتداء ملابسها .. حاولت أن أعيد الى نفسى الثقة التى كدت أفقدها .. ولكنى كنت حزينة يائسة ، فأمضيت يوما كئيبا مليئا بالأفكار السوداء ، وأرقت ليلتى أرقا فظيعا حتى

شعرت بالصداع والألم يكاد يفتك برأسى وأعصابى ، ومع هذ
لم أشأ أن أصدق ما حدث ، فنهضت فى صباح اليوم التالى ،
وقررت أن أذهب اليه .. الى النادى فقد كان لا يزال لدى بعض
الأمل فى أن أجده ينتظرنى وحده ، فأعاتبه على ما كان منه
بالأمس ، فغير ممكن أن يكون قد نسى حبه لى بهذه السرعة ..
ولكنى رأيت ما حطمنى وأفقدنى الثقة به وبالرجال جميعا ، كان
يجلس فى مكان بعيد ومعه فتاته الشقراء يميل عليها وهو يحدثها،
تماما مثل ما كان يفعل معى ، لابد أنه يقول لها نفس الكلام الذى
كان يقوله لى ، والذى قاله لكل فتاة قبلى .. هذا الثعلب الخائن
الذى ضحيت بخطيبى المخلص من أجله .. لم يعر وجودى أى
اهتمام ، بل لم يحاول حتى أن يلقى الى بالتحية ، كأنه لا يعرفنى،
وكأنى لم أكن حبيبة القلب ، وحلم الفؤاد ؛ وفتاة الأحلام التى
لا يستطيع الحياة بدونها ، ويتمنى لو قضى بقية العمر بجوارها
بعيدا عن الناس .. لقد صدقت هذا الكلام المزيف الذى استطاع
به أن يوقعنى فى شراكه ، ولم تكن لى التجارب الكافية التى
تجعلنى أميز بين الخير والشر ، والتى تعتبر كفيلة بأن تحصننى
ضد الوقوع تحت تأثير المنافقين المخادعين..كنت أظن أن ما يقوله
الناس يعبر حقيقة عن مشاعرهم ، وعما يجيش فى قلوبهم ويجول

بخواطرهم .. أخذت أراجع أحاديثه معى ، فلمت نفسى لأننى لم أفطن الى لهجته الخادعة الكاذبة ..

سمعت صوتا يقول لى :

— « أشجان » .. هل تبكين ؟

فمسحت الدموع التى كانت تتساقط دون أن أشعر بها ، واستدار فهمى ناحيتى ، وقال بعد قليل من التردد :

— أنا أعلم السبب .. « أشجان » .. اسمعى نصيحة صديق يريد لك كل الخير .. ابعدى عنه ، فعصام لم يعرف الحب الحقيقى أبدا ، ولن يعرفه .

نظرت الى فهمى مستغربة ، كيف عرف بما كان بيننا ؛ فأكمل حديثه قائلا :

« أشجان » اعتبرينى أخا لك ، وأنا أكلمك بكثير من الصراحة ، ثم أخذ « فهمى » يسرد على كل ما حدث بينى وبين « عصام » كأنه كان ثالثنا دائما منذ أن تقابلنا فى المصيف ، بكل التفاصيل الدقيقة والمخجلة أيضا .. لقد كسب الرهان الذى تراهن به مع « فهمى » على ايقاعى ، عندما قال « فهمى » اننى كالقلعة المحصنة ، واننى أختلف كثيرا عن الباقيات ..

حتى أدق التفاصيل يعرفها « فهمى » .. اكتشفت اللعبة الدنيئة القذرة التى لعبها معى « عصام » ولابد أيضا أن جميع

أعضاء النادى ، يعرفون كل ما عرفه « فهمى » .. لم أستطع بعد ذلك أن أنظر الى وجه أحدهم ، وأصبحت أخجل من نفسى .. حقيقة أننى لم أصل فى علاقتى معه الى الحد الذى يجعلنى أندم على ذلك فى المستقبل ، ولكنى فقدت شيئا كنت أعتز به ، لقد فقدت كرامتى وكبريائى ، وفقدت احترامى لنفسى ، واحترام الناس لى .. أصبحت أتعذب لأننى صرت ضعيفة منبوذة ، وأنا أرى نظرات الجميع حولى تفضحنى .. ولكن يجب أن أتحمل لأنى أنا السبب ، فقد كنت أعلم أنه فاسد مغرور ، سىء الخلق ، ورغم ذلك أحببته ، وتركته يخدعنى بألفاظه المنمقة وحبه المصطنع .. يا الهى ما أعجب هذه الحياة ! لقد كان بالأمس يجرى ورائى ، ويستعطفنى ، وها هو الآن أمامى يرانى ولا يشعر بوجودى انه يريد أن يذل كبريائى .. يجب أن أشعره أن الأمر لا يعنينى مطلقا ، وبأننى أنا أيضا قد أسقطته من حياتى الى الأبد ، فاذا كنت لا أستطيع أن أسترد حبه فيجب على الأقل أن أسترد احترامه لى ، وأن أشعره بأنه لم يترك أى أثر فى قلبى أو حياتى .. نظرت الى « فهمى » وابتسمت قائلة :

— هيا نجلس قليلا .

تعمدت أن نجلس على المائدة المجاورة لهما ، حتى يرانى وأنا أضحك ، وأتجاذب الحديث مع صديقه ، وكأن لم يحدث

شيء ذو بال ، ولاحظت « عصام » وهو ينظر ناحيتى ؛ فرفعت صوتى بالضحك ، حتى لقد فطن « فهمى » الى غرضى ، فقال بصوت حزين :

— انك لا زلت مهتمة به .

فقلت وكأنى أنفى عن نفسى تهمة حقيرة :

— أنا لا أشعر تجاهه الا بكل ازدراء وكراهية .

فأجاب :

— الكراهية والاحتقار كلها عواطف تحملينها له .. اتركيه من تفكيرك تماما .. انه انسان تافه .

فقلت وأنا أنظر الى تلك الفتاة باحتقار :

— فعلا .. انه حقير .

وقف « عصام » وتعلقت الفتـاة بذراعه فى طريقهما الى الخارج ، وعندما اقتربا من مائدتنا ألقى « عصام » علينا التحية بصوت مرح كعادته ، فلم أستطع أن أرد على تحيته الوقحة ، لأن صوتى كان مختنقا بالبكاء ، فأدرت وجهى حتى لا يرى الأسى المرتسم عليه .. ثم غادرا المكان معا ، وكانت هذه أول صدمة فى حياتى الهادئة .. أول مرة أشعر فيها بالحزن الحقيقى ، ليس لأنى لا زلت أحبه ، ولكن لأننى لم أستطع أن أحتفظ بحبه ؛ فليس أصعب وأمر من أن يبدأ هو بالقطيعة وليس أنا .. وجلست

نفسى فى دوامة عنيفة قاسية تتنازعنى أفكار سوداء كئيبة فتحرك فى كل دقيقة ندما جديدا :

ما ان وصلت الى بيت الطالبات حتى تسللت الى غرفتى سريعا حتى لا ترانى احدى الفتيات ، فتقف تثرثر معى فى وقت أريد فيه أن أخلو الى نفسى ، ولكن ما ان دلفت الى الحجرة حتى وجدت « دلال » جالسة تتصفح الجريدة اليومية ، فرسمت ابتسامة مزيفة على وجهى ، وأنا أحييها حتى لا تلحظ شيئا ، وأخذت أخلع ملابسى بينما « دلال » تلاحقنى بأسئلتها السريعة ، وأنا أرد عليها فى اقتضاب ، ثم حاولت أن أبعد وجهى عنها حتى لا ترى الدموع التى ابتدأت تتدفق من عينى ، وفجأة خانتنى أعصابى ، فوجدت صوتى يرتفع ببكاء مر لم أبكه فى حياتى أبدا .. بكاء خرج من أعماق نفسى ، كأنه بركان انفجر بعنف ، ودفعنى حنان « دلال » وجزعها من أجلى الى أن أسرد عليها قصتى كاملة منذ تركتها فى العام الماضى ، أخبرتها بما كان من شأنى مع « على » وكيف أنى تنكرت له فجأة وفقدته بارادتى ، واختيارى ، وكيف أنى تركت « عصام » يخدعنى بأسلوبه المنمق وعاطفته المصطنعة .. أخبرتها بكل شىء من خلال دموعى الغزيرة ، وبعد أن انتهيت من قصتى شعرت بارتياح كأنى قد تخلصت من جزء من الضيق الشديد الذى كان جاثما على

صدرى ، ومما خفف عنى أيضا اعتقادى بأنى أكفر عن الذنب الذى ارتكبته فى حق « على » ألم أتركه أنا مثلما تركنى «عصام» ؟ يجب أن أتعذب كما تعذب هو ، قالت « دلال » :

— أنا عندى تعليل واحد لحزنك الشديد ، هو أنك نادمة على ترك خطيبك الذى يحبك ، انك لا زلت تحبينه لا تفقدى الأمل فلديك الفرصة لتصحيح الخطأ .. ان قلبه كبير كما تقولين وسيغفر لك .

كنت أستمع اليها وقلبى حزين ودموعى تتساقط ، أفكر فى كلامها .. هل حقيقة لا زلت أحب « على » ذلك الحب العظيم الذى كنت أكنه له من قبل .. تصورت وجهه و « دلال » تقول لى « انك لا زلت تحبينه » وأخذت أسترجع الماضى ، وأول يوم رأيت فيه « على » وكيف تسلل حبه الهادىء الى قلبى ، وكنت أتمنى وأدعو الله أن يأتى اليوم الذى يبوح لى فيه بحبه ، واعتبرت نفسى أسعد مخلوقة على وجه الأرض عندما ألبسنى خاتم الخطبة ، وهو ينظر الى بحنان بالغ ، وعيناه العميقتان تعبران عما يكنه لى من حب عميق صادق .. انها السعادة التى تركتها تفلت من يدى ، فالانسان لا يعرف معنى السعادة الا اذا افتقدها .. كيف نسيت كل هذا فى لحظة طيش ؟ .. أخذت الذكريات تتابع أمام عينى فتذكرت الأيام الهانئة التى كنا نجلس فيها أنا و « على » فى

حديقة المنزل ، كان يقرأ لى بصوت خافت ، وقد جلس على الأرض فوق الحشيش الأخضر بينما أكون أنا جالسة فوق مقعد من الأغصان ، وكان الهواء يطيح بخصلات شعرى الى الوراء فينظر الى بعينين عاشقتين كأنه عابد فى محراب .. لقد أطحت بسعادتى بيدى ، وها أنذا أجتر الندم والألم ، ولكن هل نسينى هو ؟ لا .. فغير ممكن أن ينسى سريعا فتاة أحبها من كل قلبه ، ألم يقل لأبى أنه سيتركنى مجبرا وقلبه يتمزق .. ما زالت هذه الكلمات ترن فى أذنى ، فوجدت نفسى بدون ارادة أضرب رأسى فى حافة السرير ، فأخذتنى « دلال » من يدى ، وأجلستنى أمام المكتب ، وقالت :

— اكتبى خطابا لعلى ، لا تضيعى الوقت ، ولكن اياك أن تخبريه بشىء عن « عصام » فالرجل لا ينسى أو يغفر أبدا للمرأة التى تتركه من أجل آخر .

أخذت أسطر خطابا الى « على » عله يغفر لى غلطتى الكبرى ، فترجع أيامنا الجميلة الهانئة مرة أخرى ، وقد عملت بنصيحة « دلال » فألقيت عليه كل اللوم حتى يشعر أنه هو السبب فى كل ما حدث .. أرسلت الخطاب بعنوان أختى ، ورجوتها أن توصله اليه ، وبعد أن ألقيت الخطاب فى صندوق البريد أحسست اننى لم أكن أحب « عصام » فى يوم من الأيام حبا حقيقيا ، وأن



ما كنت أعتقد أنه حب كان مجرد وهم كبير ، فقد أيقنت الآن ، وفهمت حقيقة مشاعرى ، فهذه التجربة التى مرت بى جعلت قيمة « على » تزداد فى نظرى ، وحبه يتغلغل الى نفسى ويمتزج بعقلى وقلبى ، وأنه الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يفهمنى وأن يحقق لى السعادة ، ولكنى خفت أن أكون قد وصلت الى هذه الحقيقة بعد فوات الأوان .. انه شاب مهذب ، وتتمناه أى عائلة محترمة زوجا لابنتها ، هل يمكن أن يغفر لى تنكرى له ؟ .. وهل ممكن أن نعيش سويا فى وئام بعد أن تتناسى الماضى ، أم أن ما ارتكبته فى حقه سيقف حائلا بينى وبينه ؟ ..

مضت ثلاثة أيام ، وأنا أخمن وأتوجس وأنتظر بلهفة . وبفارغ صبر ، أنتظر الحكم على قلبى اذا كان سيجد الاستقرار والهدوء بعد العاصفة ، أم سيظل فى مهب الريح تتقاذفه التيارات القاسية .. وأخيرا وصلنى خطاب من « طنطا » فضضته بلهفة فاذا به من أختى « آمال » وليس من « على » كما كنت أتوقع ، وبه كلمات قليلة ما أن قرأتها حتى تأكدت أن آخر أمل لى فى الحياة قد تحطم وانهار ، وذهب الى الأبد فلم أشعر بشىء الا والغرفة تدور حولى دورات سريعة مخيفة ثم أسقط على أرض الغرفة بجوار الفراش ، وليس هناك أحد معى ، ولم أعرف كم من الوقت قضيته على هذا الحال ، ولما تنبهت ، هممت بالوقوف ، ولكنى شعرت بثقل فى جميع أعضاء جسمى فلم أستطع النهوض ، ووقع نظرى على الخطاب ملقى بجانبى فتذكرت ما حدث ، وأمسكت الخطاب أقرأه مرة ثانية لعلى أخطأت فى فهمه ، فطالعتنى نفس الكلمات القاسية التى أرسلتها لى « آمال » تقول « انك يا « أشجان » تلعبين لعبة خطرة ، وسيأتى اليوم الذى تندمين فيه على تلاعبك بعواطف الناس ، انى أبكى من أجلك فلقد

انتهى كل شىء الآن ، لقد خطب « على » فى الأسبوع الماضى فتاة أخرى جديرة به ، وأظنك تعرفينها فهى « ليلى وجدى » التى كانت زميلتنا فى المدرسة الثانوية ، وسيتم زفافهما قريبا » .

أخذت أستعيد قراءة الخطاب عدة مرات وأنا غير مصدقة ، لا أريد أن أصدق أننى قد فقدت « على » الى الأبد بعد أن تملك حبه من قلبى .. اننى أكاد أفقد عقلى بعد أن فقدت روحى .. انه سيتزوج من « ليلى » زميلتى بالمدرسة ، انها فتاة طيبة حلوة تستحق كل خير .. أما أنا فيجب أن أنساه فليس هناك دواء لجرحى غير النسيان فما جدوى هذا الحب الآن ، ولكن كيف أنسى « على » أو أنتزع حبه من قلبى بعد أن سرى فى دمى .

انقضت أيام طويلة مملة كنت خلالها قلقة شاردة ذاهلة ، أسير كالشبح ، وقد بدا كل شىء حولى حزينا ملتفا فى جو أسود كئيب ، وقد أخذ الأسى يغوص فى أعماق نفسى الحائرة .. كنت لا أستشعر فى نفسى رغبة لعمل أى شىء ، دائما صامتة شاردة ، وكأننى فى دوامة تتقاذفنى تياراتها العاصفة ، ثم تتركنى خائرة القوى ، وأصبحت حياتى خاملة ليس لها طعم ، ولا روح ولا غاية ، أحاول أن أندمج مع من حولى ، ولكننى لا أحس بوجودهم ، كما أنى لا أشعر بوجودى .. اننى أعيش ولكننى لا أعيش ، أضحك وأنا أشعر بالدم ينزف من قلبى ، حاولت أن

أضع كل تفكيرى فى الدراسة ، وخصوصا وقد قرب موعـد الامتحان ، فأخذت أنقل ما فاتنى من المحاضرات لأنى كنت أريد أن أنجح ، فربما عوضنى النجاح فى الدراسة عن فشلى فى الحب ، وأصبحت أواظب على الاستماع الى جميع المحاضرات ، ولو أننى كثيرا ما كنت أجد نفسى فجأة شاردة بعقلى عن موضوع المحاضرة التى يلقيها الأستاذ ، أفكر فى أشياء مؤلمة ، وفى أيام الامتحان بذلت كل ما أملك من ارادة حتى أستطيع أن أركز اهتمامى على ما أقرأه فى الكراسات .. وانقضت أيام الامتحان فى بطء شديد بعد أن قضت على ما تبقى من أعصابى المرهقة ..

دعتنى « دلال » لقضاء أجازة نصف السنة معها بالمنصورة ، ووعدتها بزيارتها بعد حصولى على موافقة أبى وأمى ، ثم أعددت نفسى للسفر الى «طنطا» بعد أن أرسلت خطابا الى أبى لينتظرنى..

* * *

وصلت « طنطا » وسرت فى شوارعها فوجدتها كئيبة صامتة صمت الموتى فكأنى أسير بين القبور ، فكل بيت ، وكل شارع بها يذكرنى بحبى الضائع فيملأ قلبى بالكآبة ، ونفسى بالوحشة والنـدم .

كم أحس بالطمأنينة عندما تحتضننى أمى ، وتضمنى الى صدرها ، فأشعر بارتياح شديد .. وقد زارتنا عصر اليوم خالتى ،

لتخبرنا بموعد عقد قران ابنتها « سامية » ، ولكنى تعجبت لأن سامية لا زالت فى السنة الأولى الثانوية ؛ كما أنها صغيرة لم تتم بعد عامها السادس عشر ، ولكن خالتى أجابتنى قائلة :

— صغيرة ؟ .. كيف تكون صغيرة يا ابنتى .. هذا أنسب سن لجواز البنت .

ولكنى سألتها :

— اذن فهى لا تنوى أن تكمل تعليمها فى الجامعة :

فنظرت الى بجانب عينها ، نظرة ذات معنى وقالت :

— لا .. يكفى المصائب التى تحدث من بنات الجامعة .

انها تعنينى بالطبع ، وهذا ليس رأيها هى فقط ، فهو تقريبا رأى معظم أقاربنا عنى منذ فسخت خطبتى لعلى ، فقد اعتبروا هذا التصرف شذوذا منى ، ودلالة على الفجور والطيش . وكانوا يلومون أبى لتساهله معى ..

كانت مثل هذه الأشياء تضايق أمى كثيرا ، وكنت ألاحظ أنها دائما حزينة ينطق وجهها بالألم ، وكثيرا ما كنت أفاجئها تبكى فى وحدتها .. لابد أنها تبكى من أجلى .. ان قلب الأم يشعر دائما بما يعانيه الأبناء .. مسكينة أمى لقد كانت تظن أنه من الممكن تصحيح ما وقعنا فيه من خطأ ، وكانت تأمل فى أن أرجع لعلى مرة أخرى ، ولكن بطاقة الدعوة التى وصلتنا لحضـــور

حفل زفافه قضت نهائيا على ما بقى لها ولى من أمل ، انهـــا لم تحزن لأن « على » بالذات تركنى ، ولكن لأنها تعتقد أن الفتاة التى تفسخ خطوبتها لن يتقدم لها أى عريس آخـــر ، خصوصا وقد ذاع خبر خطبتى فى البلد ، ولكن أمى اضطرت الى حضور حفل زفافه حتى لا تغضب زوج « آمال ».. وذهبت أنا أيضا حتى أشعرهم أن الأمر لا يضايقنى ، كما أنى كنت أريد أن أراه لآخر مرة .. كنت أريد أن أودعه الوداع الأخير ، وأن أنظر الى عينيه الحبيبتين ربما لن أراهما بعد ذلك ، فان زواجه هو الحاجز الذى سيمنعنى عنه ، وسيحرمنى منه الى الأبد ... لو لم يتزوج لكنت استطعت أن أطلب منه الصفح ، وأنا متأكدة أنه كان سيغفر لى ، فقلبه كبير ونفسه متسامحة ربما كان من الممكن أن يرجع كل شيء كما كان ، ولكن هكذا أرادت الأقدار أن تعاقبنى ، وهذا الألم هو جزاء تنكرى له .. ذهبت لأراه جالسا بجوار عروسه حتى أتألم أكثر ، ولكن الألم وحـــده لا يكفى لعقابى ..

* * *

كانت العروس ترتدى ثوب العرس الأبيض ، فبدت رائعة الجمال وقد اكتسى وجهها بلون وردى بديع ، شددت عـــلى يدها مهنئة ، وعلى وجهى ابتسامة باهتة .. بينما هى تبتسم بملء

فمها ابتسامة تنبع من القلب وتنطق بالسعادة ، ولماذا لا تكون سعيدة ؛ وقد أهداها الله بزوج عظيم تتمناه وتحلم به كل فتاة .. أحسست بالغيرة تنهش قلبي وتكاد تقتلني ، وتمنيت لو أن أحد الأعيرة النارية التي تطلق في الخارج تخطيء فتصيب العروس وتحيلها الى جثة هامدة ثم يصفو لي الجو بعدها ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. لم أجد وسيلة أستطيع أن أوقف أو أغير بها مجرى هذه المأساة .. مأساة قلبي ، أحسست أن « ليلى » قد اغتصبت مني حقا أملكه ، فتحولت صداقتي لها الى حقد وكراهية ورغبة في الانتقام ، وكانت « آمال » تنظر الى « ليلى » فترة ثم تنقل بصرها ناحيتي في نظرة قاسية مؤلة ، كأنها تؤنبني ، ان « آمال » هي الانسانة الوحيدة التي كانت تعرف سر قلبي ، وتعرف ما كنت أعانيه وقتها .. شعرت بالدماء الساخنة تصعد الى وجهي ، وقلبي يرتجف بشدة عندما صاح الجميع بأن العريس قد وصل ، ثم أطلقت المدعوات الزغاريد التي تحولت في أذني الى صراخ وعويل ، وأقبل « علي » وهو يحيي الجميع ، ويسلم عليهم ، فتراجعت الى الوراء سريعا ؛ ووقفت خلف الجميع ، فقد خفت أن تخونني عواطفي المضطربة ، وأنا أسلم عليه .. اتجه « علي » الى حيث تجلس عروسه ، وشد على يدها ، ثم جلس على كرسيه بجوارها ، ولم أحتمل أن أرى أكثر من ذلك ؛

فتهالكت على أحد الكراسى المصطفة ورائى .. كان كل من حولى يضـحكون ويمرحون ، ورأيت الفتيات ، وقد ازداد اشراق وجوههن ، ورأس كل منهن مملوءة بالأحلام السعيدة والآمال الباسمة ، أما أنا فلابد أن وجهى كان ينم عما أعانيه وحدى من تعاسة وشقاء .. جلس « على » ثم نظر سريعا ناحيتى كما لو كان يعرف مكانى ، ولو أنى متأكدة أنه لم يرنى عنـد دخوله ، فاهتزت جفون عينى هزات متعاقبة ، وحولت وجهى الى فتاة بجوارى ؛ واختلقت حديثا تافها ، حتى أتخلص من الانفعال الذى أصابنى ، ومع ذلك لمحته لا زال ينظر الى كأن عينيه قد تسمرتا على وجهى ، ولم أفهم سر نظرته الطويلة الى ، ان هذه النظرة العميقة التى أحببتها كثيرا لم تتغير ، وكان وجهـه هـادئا ، ولم يتجهم ، ولم يبد عليه أى انفعال لرؤيتى ، لقد قالت لى عيناه أنه لا يضمر لى أى حقد أو غضب بل لاحظت أنه لا زال يضمر لى فى قلبه بقية من ذلك الاجلال القديم ، وقد خفف هذا الظن عنى كثيرا ، وأراح ضميرى المعذب .. كان يبتسم ابتسامة هادئة لا يعلم الناظر اليها أمتكلفة هى أم هى ابتسامته الطبيعية ، وقد خيل الى أنها تحمل معنى دقيقا لا أعتقد أن أحدا من الناس قد لاحظه غيرى ، وهو أنها مصبوغة بصبغة رقيقة من الحزن العميق .. وعندما قرب موعد انصرافنا كان على أن أذهب اليه

وأهنئه كما يفعل سائر المدعوين ، وكنت أتوقع أن أرى على وجهه عند مصافحتى له حالة من حالات الغضب أو الارتباك ، فلم أر الا رجفة خفيفة بشفتيه عندما تلاقت عيوننا ، ثم عاد الى ابتسامته ، ان خيالى يحاول أن يصور لى الأشياء أكبر بكثير مما أراها .. أحاول أن أقنع نفسى بأنه لا زال يضمر لى بعض الحب برغم كل ما حدث ..

استلقيت ليلا فى حجرتى ، وخيالى يعيش معهما مع « على » وعروسه ، وقلبى يصرخ فى صدرى .. لقد قاسيت كثيرا فوق ما يحتمله قلبى المحطم المسكين ، فتمنيت أن يأتى نور الصباح فيريحنى من تلك الخواطر المتراكمة ، وهذا الخيال الجامح الذى يسكن برأسى فلا يحمل لى الا ألما ووخزا ، ومعانى لا أملك التعبير عنها .. لقد أصبحت أحب « على » حبا لم أضمر له مثله فيما مضى ، لأنه حب بلا أمل ، ولا رجاء بل اعتقد أننى منذ عرفته ما نسيته فى يوم من الأيام ، واننى كنت أخدع نفسى وأكذبها حينما ظننت أننى أحب ذلك الشخص الآخر ، لقد كانت نزوة طارئة ، ولكننى دفعت ثمنها غاليا جدا ، ان تلك الخطيئة التى أسميها نزوة عابرة ليست الا ذنبا كبيرا ، لذلك لابد أن يكون عقابى عظيما .. ربما أحببت بعد ذلك لأنه لابد لى أن أسكن الى رجل فى يوم من الأيام ، ولكنى أعرف اننى مهما أحببت فلن يصل حبى الى أى انسان الى مثل ما أشعر به الآن نحو « على » .



لاحظ أبى ما أنا عليه من شحوب واعياء شديدين ، فوافق على آن أسافر الى المنصورة لأقضى ما بقى من الأجازة عند صديقتى « دلال » فأبرقت لها لتنتظرنى على محطة المنصورة ، وأعددت بعض الملابس اللازمة لى ثم هربت من « طنطا » التى تثير فى نفسى أشجانا وأحزانا لا حصر لها ..

* * *

تمتاز « المنصورة » عن « طنطا » أنها خفيفة الدم ، وفتياتها من أجمل الفتيات فى القطر المصرى .. عيـون ملونة وشـعر أصفر وجمال طبيعى دون مساحيق ، ولكنهن لسن رشيقات ، بل يملن الى السمنة المفرطة أحيانا ، وكذلك لسن فى رشاقة بنات القـاهرة ، ولكن تكفى نظرات عيـونهن الماكرة لتحطيم أقوى القلاع .

عشت ما يقرب من أسـبوع فى جو ليس غريبـا ، ولكنه جديد .. بيت بدون رجل يتكون من خمس نساء ، الأم ، وثلاث بنات وخادمة — حرية مطلقة ، واعتماد على النفس وخروج على التقاليد .. الأم أجمل وأكثر اناقة من فتياتها ، تلقى اهتماما كبيرا على المظـاهر ، مشغولة دائما بالجمعيـات الخيرية والمؤتمرات النسائية .. حقا هى فى الثالثة والأربعين أو نحو ذلك ، ولكنها تبدو أصغر من ذلك بعشر سنوات ، والابنة الكبرى « دولت »

تعمل مدرسة ، وهى فى حوالى الســادسة والعشرين من عمرها
تعلو وجهها الرزانة والوقار أكثر من أمها ، لا تهتم كثيرا بمظهرها
الخارجى مثل اختها ، وتقضى معظم يومها مع التلميذات فى حجرة
خلفية خصصتها لاعطاء الدروس ، وقد علمت أنها كانت متزوجة
ولم أشأ أن أسأل عن سبب طلاقها .. والأبنة الوسطى هى «دلال»
زميلتى ، وكانت هى كما لاحظت الأبنة المفضلة لأنها تشارك أمها
فى كثير من الخصــال ، مثل المغــالاة فى التزين وحب الصخب
والحفلات .. أما « دوح » الأبنة الصغرى المراهقة ، فلا تزال
تلميذة بالمدرسة الاعدادية ، وهى تعيش فى عالم آخر من الخيالات
خلقته لنفسها ، فهى دائما سارحة حالمة ، وجهها الصغير ينم عن
البراءة ، ولكن مكالماتها التليفونيــة الهامســة تنم على الطيش
والشقاوة ، فهى تقضى وقتا طويلا فى كتابة الخطابات الزرقاء
المعطرة ، والخادمة الصغيرة هى وسيلتها فى توصــيل هــذه
الخطابات .. أشياء مكشوفة تحدث دون حرج أو خجل ..

استقبلتنى هذه الأسرة الصغيرة السعيدة استقبالا حافلا ..
قضيت معهم وبينهم أياما مرحة مسلية ، ظننت اننى فيها قــد
استرددت بعضــا من صحتى ، ولكنى ذهلت وأنا أرى وجهى
كل يوم فى المرآة ، انه يذبل ويذبل ، وجنتاى اللتان كانتا دائما
فى لون الدماء ، أصبحتا الآن ذات لون أصفر نحاسى باهت ،

وعيناى العسليتان اللتان كانتا تشعان فى نظرات حلوة ، قد تبدلتا بعيون جاحظة مخيفة ، وقد برزت عظام وجهى حتى بدأ منظرى كأنسانة مر عليها زمن طويل وهى طريحة الفراش .. حاولت مرارا أن أقنع نفسى بأننى سعيدة ولا ينقصنى أى شىء ، وبأننى أحسن حالا من كثيرات غيرى ، ذلك لأن أمامى المستقبل والأيام .. لقد علمتنى أم صديقتى « دلال » كثيرا .. فما أجمل أن تشعر المرأة أنها تفعل شيئا من أجل من حولها .. انه احساس جميل أن تحس المرأة أنها نافعة لمجتمعها ، ولو فى حدود ضيقة .. فقد علمتنى أن هناك أشياء كثيرة مهمة يقع على عاتق المرأة القيام بها .. هناك الجمعيات المختلفة التى تستطيع عن طريقها أن تقوم باداء أشياء نافعة لخدمة بنات جنسها ، مثلا جمعيات تحسين الصحة ، وجمعيات محو الأمية ، وجمعيات الطفولة ، وجمعيات لايواء المشردات . والبحث لهن عن عمل شريف يتكسبن منه ، هذه أشياء فى اعتقادى أن الرجل لا يحسن ادارتها كما تفعل المرأة ، فهى أعلم بأمور بنات جنسها واحتياجاتهن ، والمشاكل المختلفة التى تعترض حياتهن .. انها لم تقطع شوطا كبيرا فى التعليم ، ولكنها استطاعت أن تثبت وجودها عن طريق الجمعيات وهيئات النشاط المختلفة.. انها تمثل المرأة الجديدة.. شعلة من النشاط والحركة .. لقد اشعرتنى أن للمرأة ميادين واسعة تستطيع أن

تستغلها فى أعمال نافعة تعود بالخير عليها ، وعلى بنات جنسها ..
اذن فلا يوجد شيء اسمه الوحدة ما دام هناك دواء لها ، وهو
الاندماج فى محيط المجتمع الكبير .. انى أستطيع أن أكون
رائدة للمجتمع وخاصة لبنات جنسى عن طريق الصحافة .. هذا
هو أملى الكبير الذى يعطينى القوة لمواجهة الواقع . والتطلع
الى المستقبل .

ان أيام الكلية والنوادر التى تحدث كثيرا خلالها ستصبح ذكريات عزيزة على فيما بعد حين أتخرج من الكلية ، واندمج فى تيار الصحافة ، فأنا أنوى الاشتغال بالصحافة التى يسرى حبها فى دمى منذ كنت بالمدرسة الثانوية حين قررت المدرسة انشاء مجلة مدرسية ، فى تلك الأيام اكتشفت فى نفسى هذه الموهبة فقررت أن أكون صحفية فى المستقبل ، وأذكر أننى كنت أكتب بعض القصص القصيرة ولا أنسى يوم أن كتبت قصة قصيرة أعطيتها لحضرة الناظرة لتوافق على نشرها بالمجلة المدرسية ، وكنت أظن أن الناظرة ستكافئنى على هذا النشاط فى ميدان الأخبار والمقالات وكتابة القصة أيضا ، ولكنها بدلا من ذلك استدعتنى بعد أن قرأت قصتى ، وقابلتنى بوابل من الشتائم ، وقالت لى وكأننى قد ارتكبت اثما ، أن هذا النوع من القصص لا يليق بالفتيات المهذبات ..

هناك حقيقة أسجلها هنا بعد أن تأكدت منها ، وهى أن من أحب وذاق طعم الحب وحلاوته لا يستطيع أبدا أن يحيا بدونه حتى ولو أقسم ألا يعود اليه ، تماما مثل مدمن الخمر فهو يريد

أن يتركها . ولكنه يعود اليها دائما مكرها ، فيجد فيها المرارة والراحة والنسيان .. لقد أصبح الحب بالنسبة لى كالماء بالنسبة الى الهائم فى الصحراء ، فهو النور الذى ينبعث ليضىء ظلمة الحياة ، فالحب أجمل ما فى الوجود ، ولكن أعظم سعادة فى الحياة هى أن يحب الانسان ، ويشعر أن هناك من يحبونه ويفتقدونه فالحياة بدون الحب كالوردة الذابلة ، أو كالشجرة العارية بغير ثمار ، فالحياة والحب هما شىء واحد لا ينفصل ، لذلك لم أعد أستطيع أن أظل بدون حب ، بدون أن أشعر أن هناك من يحبنى ويفتقد وجودى ، فأنسى بجانبه حبى الأول الذى استقر فى أعماق نفسى وقلبى .. أنا أعرف اننى مهما أحببت فلن يصل حبى وتجاوبى مع الحبيب الجديد الى الحد الذى أحببت به « على » ، فالحب الأول خالد مهما حاولت أن أخفيه أو أنكره أو أدعى نسيانه ..

التقيت زميلا وسيما من الكلية كان يرسل لى الخطابات يبثنى فيها غرامه العنيف ، رأيت فيه كثيرا من الصفات الطيبة فقررت أن أحبه .. جلست معه الساعات الطوال فى أفنية وبوفيه الكلية لعلى أشعر نحوه بالحب ، أخذت أحدق فى عينيه وأنا أسمعه يردد لى كلمات سمعتها من قبل ، ولكن للأسف لم تستطع كلماته ، ونظراته الوالهة ، المفعمة بالغرام ، لم تستطع أبدا أن تمحو تلك

الصـــورة التى أراها أمامى تحجبه عن عينى وترميه بعيـــدا عن قلبى ، فبمجرد أن أتركه أنسى كل شىء عنه ، ففشلت فى استجداء الحب . فالانسان لا يحب حين ينشد الحب . كما أنه لا يريد حين يحب .. ولم أجد الحب مع ذلك الزميل أو مع غيره فتركتهم ، وأهملتهم جميعا ، وأنا غير آسفة أو نادمة على ذلك .

ولقد خرجت من تجاربى مع هؤلاء الى معرفة السر الذى يجعل الرجل يقع فى غرام المرأة . فالرجل ينظر الى المرأة تماما مثل ما تنظر المرأة الى الموضة . فالمرأة ترتدى ملابسها حتى ولو لم تكن تليق بها أو تعجبها ، ترتديها فقط لأنها قد بهرت الكثيرين ، ولاعتقادها أن هذه الملابس قد أجمع على جمالها ولياقتها كثير من مصممى الأزياء .. تماما كالرجل فهو يحب ويفضل الفتاة التى تكون محط أنظار غيره من الرجال حتى ولو لم تكن قد استرعت انتباهه من قبل ..

كنت أجد فى الصداقة الجميلة راحة لنفسى وقلبى . فمـــا أجمل الصداقة حين تكون خالصة صافية بريئة منزهة عن كل غرض .. كانت « دلال » تبذل كل ما فى وسعها حتى لا تترك لى فرصة للوحدة والتفكير الحزين . فكنت أقضى معها أوقات الفراغ فى المرح والنزهات المختلفة ، وكنـــا نذهب أيضـــا الى النادى ، وكثيرا ما كنت أجد « عصام » هناك ولكن وجوده لم

يعد يبعث فى أى عاطفة ، لا حب ولا كراهية فلقد خرج من حياتى كلية ، ولم يترك أى أثر مما أكد لى أن ما تصورته حبا كان مجرد وهم كبير ، أو نزوة صيف عابرة ، خرجت منه بتجربة أستطيع أن أتحصن بها ضد هذا النوع من الرجال ، ولكنها تجربة دفعت لها ثمنا غاليا ، وما أفدحه من ثمن ، فلقد فقدت بهذه التجربة أعز وأحب انسان الى قلبى .. كنت كذلك أصطفى من بين الزميلات فى الكلية صديقتى « راجية » لما كنت أجد فيها من الرقة وحسن المعاملة وجمال الروح ، فاعتبرتها أختا لى أطلعنها على أجزاء كثيرة من حياتى .. رويت لها كل شىء عن نفسى وعن أختى وأمى وأبى ، وعن أدق التفاصيل فى حياتنا ، وكنت أجد منها أذنا منصتة وقلبا حنونا ، ولكن أخفيت عنها أسرار قلبى ، لا لأننى أريد أن أحتفظ بها لنفسى ولكن لأن « راجية » كانت تثق فى رجاحة عقلى ، ورزانتى مما يجعلنى أخجل من ذكر أى شىء يظهرنى أمامها بمظهر الفتاة المستهترة ، وخصوصا العلاقة التى كانت بينى وبين « عصام » .. وكثيرا ما كنت أذهب لأقضى معها ومع والدها عطلة نهاية الأسبوع ، فنبقى فى الصباح بالمنزل نلعب الورق ، ويروى لنا والدها كثيرا من النوادر المضحكة والأخبار المسلية ، انه شخصية لطيفة لا يمل أى انسان مجالسته ، والاستماع الى أحاديثه المسلية .. أما فى المساء فاننا غالبا ما كنا

نذهب الى السينما اذا كانت هناك أفلام جديدة ، أو نذهب الى الكازينوهات حيث نمضى سهرات جميلة ، حتى لقد أصبحت جزءا من هذه الأسرة الصغيرة السعيدة كانى ابنه ثانية لذلك الرجل الطيب ، فكان يحبنى ويرعانى ، ويسأل عنى « راجية » اذا غبت عنهم طويلا ، وفى أوقات فراغه كان ينتظرنا أنا و «راجية» أمام الكلية فيأخذنا بعربته فى نزهة جميلة على طول الكورنيش .. كان يحب ابنتــه كثيرا ، ولذلك أحبنى من أجلهـا ومن أجل سعادتها وكنت أتآمر معه من وراء « راجية » حتى تجمع بينها وبين ابن عمها ، وتعمدت كثيرا أن أعدد محاســنه ، وأمتدح صفاته أمامها ، وأعتقد أننى قد نجحت فى تصويره أمامها بفتى الأحلام المنشود ، ووفقت أنا وأبوها فى استمالتها وفى أحد الأيام صارحتنى « راجية » أنها ابتدأت تشعر بشىء من السعادة عند رؤيتها « لجمال » ابن عمها ، ولم يمض أسبوع واحد حتى تمت خطوبتهما ، ولم يمض شهر حتى أقيم احتفال كبير لعقد القران ، ونسيت « راجية » كل شىء تماما عن حبها الساذج لأســتاذها فى الجامعة ، وأصبحت تضحك بملء فمها حينما أذكرها بذلك اليوم الذى بكت فيه بكاء مرا ، وهى تروى لى قصة غرامهـا الميئوس منه ، ثم تهز رأسها فى تعجب كيف تهيأ لها أن ذلك

الوهم كان حبا ، وتؤكد أنها لم تعرف الحب الحقيقى الا بجانب ابن عمها ، وأنه هو حبها الأول والأخير ..

* * *

ما أصعب وقع المفاجأة خصوصا حين تكون غير متوقعة الحدوث تماما ، انها تفقد الانسان القدرة على التفكير السريع السليم سواء أكانت مفاجأة سارة أو مؤسفة .. ذهبت فى أحد الأيام كالعادة لزيارة « راجية » ولكنى لم أجد بالمنزل سوى والدها ، أما «راجية» فقد خرجت مع خطيبها ، فجلست أتجاذب الحديث مع والدها ، وبينما نحن جالسين فى الشرفة المطلة على النيل تتأمل الشمس تنعكس على مياهه فتكسبها بريقا خاطفا ، كما كانت اشعتها تنفذ الينا من وراء أوراق الشجر التى كانت تحف بالشرفة ، فملأت نفسى بالبهجة والرغبة فى المرح ، ثم حدثت المفاجأة التى لم أكن أتوقعها أبدا ، ولم أكن أفكر فى امكان حدوثها حين بادرنى والد « راجية » بسؤال عجيب قال :

— هل أستطيع أن أعرف ان كان فى حياتك أى رجل ؟

فترددت وتلعثمت كتلميذة صغيرة ، ثم قلت بسرعة كأننى أريد أن أنفى عن نفسى جريمة :

— لا .. طبعا .

فبدا الارتياح على وجهه الوقور ، ثم قال فى ثبات :

— « أشجان » أنا لست شابا صغيرا ، وأحب الصراحة بدون مراوغة ، وأريد أن تجاوبينى بنفس الصراحة .. هـل تقبلين الزواج منى ؟ ..

لم أكد أسمع هذه الجملة الأخيرة حتى أصابنى ما يشبه الدوار ، ونظرت اليه فى دهشة ، وأنا لا أصدق .. اننى فى عمر ابنته ، وانظر اليه باحترام نظرتى لأبى ، فلم أدر مـاذا أقول أو أفعل .. هل أغضب ؟ .. أم أبتسم .. هل أوافق ؟ .. أم أرفض .. ووجدته يحدق فى وجهى منتظرا اجابتى ، فقلت وأنا أخفض وجهى الى الأرض حتى لا أنظر فى عينيه :

— لقد فاجأتنى يا عـ ..

ثم تراجعت قبـل أن أنطق بهـذه الكلمة « عمى » حتى لا أشعره بالحرج فناديته بأستاذ « رحمى » ، ولم أعطه رأيا قاطعا بل تركته على أن أفكر فى هذا الأمر ، وأخبره غدا برأيى ..

خرجت وأغلقت الباب ورائى ، ودخلت المصعد ، وتركت المنزل ، ثم سرت فى طريقى وركبت الترام .. كل هذه الأعمـال أتيتها بدون تفكير تماما مثل الآلة ، وعندما وصلت الى البيت لم أصدق أننى قد وصلت ، لأننى لم أتذكر كيف جئت ، لقـد كان كل تفكيرى منصبا على ما قاله لى الأستاذ « رحمى » والد

« راجية » .. ولكن بعد أن عدت الى نفسى ، وأخذت أفكر مليا فى قوله ، وجدت أن ما عرضه على أمر طبيعى جدا ، ومعقول .. ان « رحمى » فى حوالى الخامسة والأربعين من عمره ، لا زال يتمتع بوجه نضر وضحكة صافية تكشف عن أسنان لامعة سليمة ، وهناك بعض الشعيرات البيضاء على جانبى رأسه ، تكسب وجهه مسحة من الوقار والجاذبية ، ويتمتع بصحة يحسده عليها شاب صغير ، وهو فوق ذلك رجل أعمال ثرى ثراء فاحشا فهو يدير شركة كبرى للتأمين ، ويمتلك عدة أفدنة ، وثلاث عمارات شاهقة بجانب عمله بالتجارة أيضا .. وفجأة وجدت أن شعورى نحوه يتغير ويتحول وينمو .. أنه يستطيع أن يحقق لى السعادة لما أشعر به بجانبه من الحماية والرعاية والحنان ، وهو ما لا أستطيع أن أشعر به مع شاب صغير فى مثل سنى ، فلو اننى ارتضيت الزواج منه فانه بلا شك سيعمل كل ما فى وسعه لارضائى ، وتوفير سبل الراحة لى .. ان أى شاب صغير مهما بلغ حبه لى فانه لن يقدرنى مثل الرجل الكبير العاقل ، فالشباب لهم نزواتهم وطيشهم ويكفينى ما أصابنى من أحدهم ..

قررت أن أخبر « دلال » لأستشيرها أو آخذ رأيها فى موضوع زواجى ، لأنى كنت قد قررت نهائيا أن أقبل الزواج من «رحمى» ولكنى كنت أطلعها أولا بأول على جميع أسرارى ؛ كما أنى كنت

أريد أن آخذها معى فى اليوم التالى لترى الثراء العريض الذى سأعيش فيه ..

وفى الصباح بحثت عن « راجية » فى الكلية وأخبرتها بما طلبه منى والدها ، فقد خفت أن تغضب عندما تعلم ، وعلى عكس ما توقعت فقد فرحت « راجية » وهللت ؛ وقبلتنى وهى سعيدة ، لأننا لن نفترق أبدا ، وأيضا لأنها عندما تذهب الى منزل زوجها فلن تترك أباها وحده ..

وفى المساء استقبلنا « رحمى » أنا ودلال استقبالا رائعـا والسعادة تبدو على وجهه حتى خيل لى أنه قد رجع الى الوراء عدة أعوام ، لأن مجيئى لزيارته كان معناه أننى قد وافقت على طلبه ، وشعرت بسعادة تغمرنى لأننى قد أدخلت السعادة الى قلب انسان عزيز .. وقد أبدت « دلال » اعجابها الشديد بجمال منزله وأناقة أثاثه ..

اتفقت مع رحمى على أن نسافر معا الى « طنطا » فى الأجازة الصيفية ليطلب يدى من أبى ، وقررت أن أرســل لأبى قبل ذهابنا حتى يكون على علم بالأمر ، وأن يستعد لاستقباله ..

حين أكون مع « رحمى » وحدنا لا أشعر بنفس العاطفة العميقة التى كنت أشعر بها بجوار « على » كما أنى لا أشعر بتلك العاطفة العنيفة الملتهبة التى كانت تنتابنى بقرب « عصام » ..

ولكنى أشعر بشيء آخر يختلف تماما عن حبى الأول والثانى .. اننى بجانب « رحمى » أحس بالارتياح والاطمئنان والحماية .. أشعر كأننى قد أصبحت امرأة ناضجة عاقلة تخلصت من نزق وطيش الفتيـــات الصغيرات فقــد خيل الى أنه قد أعطانى عشر سنوات من عمره أكسبتنى وقارا واتزانا ..

أوصلنى « رحمى » أنا و « دلال » بعربته الجديدة الفاخرة التى قال أنه سيهديها لى عندما نتزوج لتكون تحت تصرفى دائما .. كان الوقت ليلا فظل واقفا حتى اختفينا عن نظره ..

أدهشنى أن ألحظ لأول مرة « دلال » شاردة تفكر باهتمــام شديد ، وكان يبدو على وجهها عدة تعبيرات مختلفة ، وقالت لى وهى تهم بخلع ملابسها وارتداء البيچاما :

— « أشجان » فكرى جيدا قبل أن توافقى على الزواج من رجل كبير .. انه يكبرك بحوالى عشرين سنة ، وربما أكثر .

أدهشنى أننى قد أخبرت « دلال » من قبل أن نذهب الى زيارته أنه رجل كبير فى السن ، فضرحت ، وهنأتنى ، وأخــذت تعدد لى مزايا الزواج من رجل كبير فى العمر .. لا أدرى ما الذى غير رأيها هكذا سريعا بعد أن ذهبت معى ورأته ، ولكنى لم أكن فى حالة تسمح لى بأن أناقشها فى ذلك الوقت من الليل ، فتصنعت النوم ، لقد أعطيته كلمة بالموافقة ، كما أنى سعيدة بأننى قد بدأت أحاول التخلص من متاعبى وحيرتى ..

— ١٣ —

بعد أن اتخذت هذا القرار ، تغيرت تماما فى معاملتى للطلبة فى الكلية ، فقد أصبحت أحادثهم فى كثير من التحفظ وابتعدت عن كل ما يثير الشبهات حولى ، فلقد شعرت أننى مسـئولة عن كرامة رجل شريف يريد أن يعطينى اسـمه ، فأرجع لى ثقتى واحترامى لنفسى ، حتى أكون جديرة بحمل اسمه وأهلا لثقته ..

أخذنى « رحمى » الى عدة أماكن جميلة بالقاهرة ، وكان ينفق على ببذخ شديد ، وكانت تصحبنا غالبا « راجية » وزوجها .. لقد كان سعيدا بى فبدت الفرحة فى عينيه كأنه طفل صغير فرح بلعبة جديدة ثمينة .. قضيت أياما سعيدة طفنا فيها أنحاء القاهرة ، ولم يترك مكانا الا وأخذنى اليه ، ووعدنى بعد اتمام زواجنا بأن نسافر معا الى جميع الأماكن المشهورة ..

أليس لى الحق بعد ذلك فى أن أشعر ، ولو بقدر ضـئيل من السعادة ؟ .. ولكن هل يمكن أن تدوم السعادة طويلا ؟ .. ان عهدى بها خائنة دائما .. ان عمر السعادة أقل من عمر الزهرة الصغيرة .. لقد أصبحت لا أصدق أن الحيـاة يمكن أن تسير سهلة سعيدة دون أن تعترض طريقها أية عقبات تقف أمامها ،

وعواصف تطيح بها ، وأن الانسان يمكن أن يعيش حياة آمنة خاليــة من المواقف الحرجة والتجارب المؤلمة .. هكذا علمتنى الأعوام التى قضيتها بالقاهرة ..

ذهبت الى الكلية صباحا فى الســاعة العاشرة ، بحثت عن « راجية » فوجدتها واقفة مع بعض الصديقات ، وما أن لمحتنى حتى تبدل وجهها فجأة ، وظهر عليها الوجوم والتجهم ، فعجبت لأنى لم أرها على هذا الحال من قبل ، بل كانت دائما ضاحكة الوجه متبسطة الأسارير ، وبدون أن ترد على تحيتى جذبتنى من يدى بعيدا عن الصديقات ثم واجهتنى قائلة بلهجة قاسية :

— هل أنت حقا عــلى علاقة برجل يسمى « عصام » ؟

« عصام » !! خيل الى وقتها أن الأرض تميد تحت قدمى ، فأصابتنى رعشة مخيفة ، وشعرت أن حلقى قد جف من هول المفاجأة فأجبتها ..

— من قال هذا ؟ ..

فقالت بصوت أقسى مما قبل :

— ليس المهم أن تعرفى من الذى أخبرنى بذلك .. المهم هو أن أعرف اذا كانت الفتاة التى سيقترن بها أبى شريفة أم لا ..

أحنقتنى كلماتها المهينة ، حتى كدت أصفعها ، ولكنى تمالكت نفسى ، وتركتها ، ومضيت سريعا دون أن أنبس بكلمة واحدة ..

لقد نسيت « راجية » فى لحظة واحدة صداقتنا المتينة ، ونسيت حبى واعزازى لها ، ولم تتذكر الا اننى فتاة لا يصح أن يقترن بها والدها ، ولكن لا يجب أن ألومها ، فلها الحق فى أن تثور من أجل والدها الذى تحبه وتحرص على سمعته ، فلا شك أنها قد سمعت أشياء كثيرة ربما كانت مبالغا فيها عنى .. أخذت أستعيد فى ذاكرتى الأشخاص الذين كانوا يعلمون بعلاقتى السابقة بعصام ، فلم أستطع أن أصل الى معرفة ذلك الواشى الذى يريد أن يحطمنى .. هل يمكن أن يكونوا زملاء فى النادى ؟ .. لا فانى قد انقطعت أخيرا عن الذهاب الى هناك ، ولا يعلم أحد منهم شيئا عنى ، وعن اعتزامى الزواج من والد « راجية » .. هل هو « عصام » نفسه ؟ ولكن لماذا ؟ .. انه لا شك قد نسى كل شىء عنى ، وأخاله الآن غارقا فى مغامرة جديدة .. اذن هل تكون « دلال » ؟ .. مستحيل .. فهى تعمل كل ما فى وسعها لمساعدتى واخراجى من وحدتى ، وتخليصى من أحزانى ، فغير ممكن أن تتفوه بشىء تعلم أنه سيضرنى ويؤلمنى .. ولم أخرج من حيرتى بنتيجة .. لقد أردت أن أتخلص من الماضى ، ولكنى أراه يلاحقنى ، ويقلق مضجعى .. ولكن لماذا يريد الناس ايلامى ؟ .. هل يوجد هناك أشخاص أشرار الى هذا الحد ؟ .. خفت أن تكون « راجية » قد أخبرت والدها بكل شىء ، لابد أنها قد أخبرته ، وقد يحتقرنى

وينبذني قبل أن يسمع منى الحقيقة ، وهى أن صلتى بعصام قد انتهت .. صممت على أن أمنع « راجية » من اخبار والدها بأى شيء ، سأتوسل اليها .. سأستحلفها بحق صداقتنا كى تساعدنى عــلى دفن الماضى ، لأنها كانت غلطة ندمت عليهــا ، ومضت ولن تعود أبدا .. مضيت كالمجنونة أبحث عن « راجية » فى أنحاء الكلية ، ولكنى لم أيأس بعد من امكان اصلاح ما حدث فأسرعت الى منزلهم لعلها لم تبح بعد لأبيها بما عرفته .. ولم أجدها بالمنزل ، بل وجدت « رحمى » وحده ، ولم ألحظ عليه أى تغيير يدل على أنه عرف شيئا ، بل رحب بى كعادته وأخبرنى أن « راجيــة » ذهبت الى منزل عمها ، وانتظرتها طويلا ، وحان وقت الغذاء ولم تحضر ، واضطررت أن أذهب الى بيت الطالبات لابدال ملابسى ، لأنه كان يريد أن نخرج سويا فى المساء ، وقد حاولت أن أعتذر ولكنه ألح على ..

قال لى ونحن فى العربة ، وهو ينظر الى وجهى أمامه فى المرآة :

— ما رأيك .. نذهب اليوم الى كازينو « الرومانس » ؟

تاهت الكلمات وغامت الدنيا فى وجهى عند سماع اسم هذا الكازينو ، انه لم يأخذنى اليه من قبل ، وما الذى جعله يتذكره اليوم بالذات ؟ .. فهل عرف كل شيء ؟ .. رأيته ينظر الى بحدة كأنه يريد أن يستشف ما بنفسى أو هكذا خيل لى ، ثم سألنى ثانية ، وهو لا زال ينظر الى هذه النظرة الحادة الصارمة :

— ألا تعرفين هذا المكان ؟

فاندفعت الكلمات من حلقى كالصاروخ ، وكأننى أريد أن أبعد عن نفسى خطرا محدقا (لا .. لا أعرفه) ثم ندمت لأننى تكلمت بتلك اللهجة السريعة المرتجفة .. كان يجب أن أنكر معرفتى بهـذا المكان .. اننى أريد أن أنسى ذلك المكان الذى قابلت فيه « عصام » لأول مرة ، والذى لا يزال « عصام » يتردد عليه دائما مع صديقاته كما سمعت .. كنت لا أريد الذهاب الى هناك مرة أخرى .. أريد أن أهرب من ذكريات مؤسفة ، وأرغب فى التطلع الى حياة جديدة محترمة ، ولكنى لم أستطع أن أطلب منه عدم الذهاب الى هناك حتى لا أثير شكوكه ، وخفت أن يقودنى هذا الانكار الى ما لا أحب ..

ما أن اجتزنا الباب الخارجى ، ودلفت الى الداخل حتى تراجعت الى الوراء ، ووددت ساعتها لو استطعت أن أهرب من ذلك الموقف الأليم الذى ينتظـرنى ، ولكن يده كانت ورائى تدفعنى الى الأمام ، فتقدمت وأنا أرتجف خوفا من حدوث أى تصرف شاذ من « عصام » الذى كان جالسا أمام البار يعب من كئوس الشراب .. جلسنا الى احدى الموائد ، وأنا أدير وجهى الى ناحية أخرى حتى لا يرانى « عصـــام » وكان « رحمى » يكلمنى ولكنى لم أع شيئا مما قاله وقتها ، وكنت أتفوه بألفاظ

غير مفهومة ، وأنا أتلفت حولى كالفأر المذعور ، وتمنيت لو تطفأ الأنوار كلها طيلة جلوسنا ، ولكن كان واضحا أن الأقدار لم تكن تريد لى الهدوء ولا الاستقرار ، وتريد دائما أن تذكرنى أن الماضى لا ينتهى ولا يموت .. وأنه يتحكم فى مصائرنا .. فقد لمحنى « عصام » فترك مكانه أمام البار ، وتقدم وهو مخمور يكاد يقع من فرط الشراب ، واقترب من المائدة التى نجلس عليها وكلما اقترب كنت أشعر بقلبى يكاد يسقط من مكانه ، وضرباته المتلاحقة تصم أذنى .. أخذ « عصام » يحملق فى وجهى وفى لحظة واحدة كنت قد فقدت كل شىء عندما صاح هذا المجرم وصفق بيديه قائلا :

— الله ! « أشجان » .. لقد وحشتينى جدا يا أموره .

فقفز « رحمى » كالوحش الغاضب واتجه الى « عصام » ، وأمسك به بقوة ، وهو يصرخ فى وجهه :

— من أين تعرف « أشجان » ؟

فرد عليه ببرود :

— وانت مالك .. بنحب بعض .

فتركه « رحمى » واتجه ناحيتى ، ونظر الى باحتقار شديد ، نظرة قاسية لم أرها على وجهه من قبل ثم قال :

— لم اكن أصدق عنك هذا ، ففضلت أن أتأكد بنفسى ، يجب أن تعلمى جيدا اننى لن أترك اسمى يتمرغ فى الوحل .

تمسكت ببعض الأمـل ، وحاولت أن أتكلم لأدافـع عن نفسى ، وأن أتوسل اليه أن يغفر لى ، ولكن كبريائى أطار كل الكلمات التى كنت أريد أن أستعطفه بها ، ورأيته يندفع الى الخارج كالصاروخ ، وتركنى أحملق وراءه كالمذهولة لا أدرى هل هذا حدث فعـلا أم اننى قد فقدت عقلى .. وتقـدم منى « عصام » فى نذالة ، ومد لى يده بكأس قائلا :

— اشربى يا « أشجان » .

وفعلا أخـذت الكأس من يده ، وهممت بشربها ، ولكنى لم أطق رائحتها الكريهة ، فقذفت بها بعيدا ، وقمت من مكانى كالتمثال المتحرك ، وسرت فى طريقى لا ألوى على شىء ؛ ولم أبك فى هذه المرة .. لقد احتبست الدموع فى حلقى ، وجفت فى عينى .

وعندما عدت الى بيت الطالبات غامت الدنيا فى عينى وأنا أتذكر ما حدث .. لماذا لم يغفر لى ؟ .. لقد أخطأت حقا ولكنى لم أرتكب خطيئة بالمعنى المفهوم .. وهل هناك الرجل الذى ليس له ماض مخجل ؟ ان الرجـال لا ينكرون ماضيهم بل نجدهم يتندرون فى مجالسهم بما حققوه من مغامرات ، ونزوات ، فلماذا ينكرون على المرأة حقا استحلوه لأنفسهم ؟ لماذا لا يتركون للمرأة

صة فى حياة جديدة ؟ .. لا شـــك أنهم يخدعون أنفسهم ،
كثيرا ما تخدعهم المرأة ، فهل يظن الرجل أن المـــرأة التى
ارها زوجة له قد خلت حياتها تماما من الشوائب ؟ .. ان
يدل على ضيق أفق الرجل وقصر نظره .. فليس هناك أى
ان رجل كان أم امرأة لم يكن فى حياته أية شائبة وخلا ماضيه
ا من النزوات ، أما غير ذلك فهو شاذ والشواذ قليلون ..

* * *

آنا محكوم على أن آفجع دائما فى حبى ، أو ما اعتقدت أنه
حبا ، لقد أصبحت أحمل قلبا تائها ضالا ، فلا أكاد ألمـــح
عا بسيطا من الأمل حتى يختفى سريعا من أمامى ، ويترك لى
ا كئيبا .. ان الســـعادة تنتقم منى لأننى تمردت عليها من
، ولم أغتنمها وأتمسك بها عندما واتتنى لأول مرة .. لقد
، سنون قصيرة من عمرى ولكن ما أروع ما جادت به من
ـداث وعبر ، وما أكثر ما تجود به الحيـــــاة من تجاريب
ـوف ، وما أبلغ العظة التى أتلقنها فى كل لحظة من حياتى ..
سف على فقد « رحمى » بقدر اشفاقى على نفسى وقلبى من
ياع .. أشعر أننى مظلومة وهذا الشعور يؤرقنى ويحطم
ابى المرهقة ، فقد فقدت ثقتى بالناس وربما بنفسى أيضا ،
نفت الابتسامة الصافية من وجهى وحل مكانها العبـــوس

والذبول ، وأصبحت تنتابنى حالة من الشرود تجعلنى أفكر
أشياء عجيبة تحول كل شيء عادى الى أشياء غريبة فى نظرى
حتى صديقتى « دلال » لم تعد تستطيع أن تجلس معى طويلا
ولم تعد تتحمل رؤية وجهى المتجهم فلم أكن أراها الا فى أوقا
تناول الطعام والنوم .. أما « راجية » فقد فقدت صداقتها ا
الأبد ، ولم تكن تأتى الى الكلية ، ربما تزوجت وفضلت البة
بالمنزل أما الأصدقاء فقد انفضوا من حولى بعد أن يئسوا م
معاملتى الشــاذة لهم ، وأصبحت لأجــد نفسى وحيدة أعيث
كالمنبوذة لا يملأ فراغى سوى الضيق ، والضجر والملل ..

اشتريت عدة كتب ومجلات تبحث فى علم النفس ، لعلى أج
بين سطورها دواء لنفسى الشقية ، وقد خرجت من قراءاتى بشي
واحد اسمه « الأمل » ، فان الأمل هو المنحة الأخيرة التى وهب
للانسان كما يقولون ..

مرت الأيام والشـــهور والأعـــوام ... مر بعضها سريعا ،
ن بعضها قاسيا طويلا ، وقد حصلت على ليسانس الآداب من
ا الصحافة ، ومرت ثمانى سنوات وأنا أعمل مندوبة صحفية
دى المجلات الكبرى ، لقد ملأت الصحافة حياتى فأحببتها
نيت فى خدمتها وكنت سعيدة فى عملى الذى حول وحدتى
حياة حافلة بالحفلات والمؤتمرات والمقابلات الهامة والأسفار
بـــدة ، فحققت الانتصارات الكثيرة ، وزادنى النصر تعلقا
حبة الجلالة ، فاندمجت فى تيارها بعقلى وقلبى ومجهودى ،
ـ من الشهرة فوق ما كنت أرجوه . وأصبح الرؤساء والكبار
ِن قلمى ، أغشى المجتمعات فألقى الترحيب .. طفت بعـــدة
ن بحثا وراء الأسرار ، فرأيت أشياء كنت قد سمعت عنها ،
أكن أحلم برؤيتها .. ان أجمل اللحظات فى حياتى هى تلك
كنت أنال فيها سبقا صحفيا ، وشد ما يغبطنى أن أرى
ى فى المجلة يقرأه ويتداوله جميع الناس ..
كنت بحكم عملى أعيش وحدى فى غرفة بأحـــد الفنادق
يرة فى القاهرة ، وكنت لا أستقر الا ليلا ، وقد أثقل تعب

النهار جفـونى فاستغرق فى نوم عميق بدون أحلام ، وأقضى
نهارى بين المطابع ومصادر الأخبار .. ثمانية أعوام قضيتها فى
العمل كنت فيها تماما مثل رجل الأعمال الأعزب ، طلقت فيهـ
العاطفة نهـائيا فلم أحاول أبدا أن أستجيب لنبضـات قلبى
وابتعدت عن كل ما يثير فى نفسى الحنين الى طبيعة المرأة .. لقد
ترهبنت فى رحاب العمل ، ونافست الرجال حتى كدت أنسى
أنوثتى ، وأغفلت الرجـل من حسابى كحبيب ، فلم أحاول أن
أتجمل لأجذبة أو أثير انتباهه .. تجاهلت الرجال تماما لأنى
لم أكن أريد أن أدخلهم فى حياتى بعد أن أصابنى الزمن فى حبى
وقضى على أملى فى حياة زوجية سعيدة ، وأفقدنى الثقة بالناس
حتى الصداقة لم أعد أعترف بوجودها ، فلن أنسى أبدا ما حييت
اليوم الذى رأيت فيه « دلال » أعز وأحب صديقة الى قلبى
والتى كنت أعتبرها مثال الاخلاص والوفاء .. رأيتها تجلس فى
العربة بجانب « رحمى » بعد أن صارت زوجته فعرفت وقتها
فقط أنها هى التى أخبرته بكل شىء عن « عصام » وعن علاقتى
السابقة به حتى تستحوذ لنفسها عليه ، وعلى ثروته الطائلة
فهمت وقتها فقط لماذا ابتعدت عنى « دلال » كما لم تعد تتصل بى
بعد أن تركت بيت الطالبات .. وصممت على ألا أفكر فى الرجال
نهائيا .. تقـدم لى كثيرون ، ولكنى كنت دائمـا أتذكر تنكر

« رحمى » لى ، الرجل الذى ارتضيت الزواج منه برغم كبر سنه ، ولم يغفر لى خطأ ارتكبته فى الماضى وندمت عليه ، فقررت أن أبدأ أنا برفضهم قبل أن تتكرر نفس المأساة .. وأصبحت هوايتى تعذيب الرجال فحطمت قلوب الكثيرين .. وعندما جاءتنى الشهرة ، وجرفتنى فى تيارها لم أعد أشعر الا بنفسى ، فلم أهتم بمن كانوا يحومون حولى ويحاولون خطب ودى ..

كنت أقلب صفحات مفكرتى الصغيرة يوما ، فلمحت دائرة حمــراء صغيرة كنت قد رسمتها حول الرقم (١٨)من شــهر سبتمبر .. انه يوم ميلادى .. شعرت ساعتها اننى انسان كان نائما نوما هادئا مريحا ، ثم فاجأه كابوس مريع أرق مضجعه ، وأخرجه من ثباته وهدوئه .. لقد صحوت فجأة على الواقع الأليم المر ، فلقد اجتزت الحلقة الثالثة من عمرى ، وأصبحت أوشك أن يطلق على اسم « عانس » هذا الاسم الكريه الذى يقشعر بدنى لمجرد ذكره ، ولكن ليس هناك مناص من مواجهة الواقع المفجع .. حاولت أن أنام لعلى أصحو على غير ما كنت عليه ، ولكن النوم تصادق مع القلق فلم يغمض لى جفن ، فنهضت من مكانى متخاذلة ، وأضأت نور الغرفة ثم اقتربت من المرآة التى عكست لى أكثر من مجرد صورتى الكئيبة الشاحبة ، لقد طالعتنى صورة امرأة صارمة فقدت معالم الأنوثة .. عجبت لأننى لم ألحظ

ذلك الوجوم الذى بدا على وجهى من قبل كأننى أنظر الى المرآة لأول مرة منذ أعوام طويلة ! لقد أفقدتنى حياتى بين الرجال نعومتى ورقتى .. أين تلك الاشراقة الساحرة التى كانت تطالعنى دائما فى المرآة ؟ .. لقد ذهبت الاشراقة وحل محلها العبوس والخشونة .. أفقدتنى هذه الحقيقة المذهلة كل ما بقى لى من راحة البال .

انتابنى الفتور وعدم الرغبة فى القيام بأى شيء ، بعد أن كنت أعمل بهمة ونشاط يحسدنى عليها الرجال ، وملأ الضجر حياتى ، فشعرت به يكاد يلتهم روحى رويدا رويدا .. لقد جهدنى التفكير فى مصيرى ، وكيف سأمضى بقية حياتى ؟ ... ماذا سيكون عليه مستقبلى .. هل سأقضى بقية عمرى هكذا متنكرة لطبيعة الأنثى الدفينة فى نفسى ؟ .. ما فائدة هذه الشهرة التى أتمتع بها وهذه الأموال التى أحصل عليها ، اذا كانت حياتى قد خلت من السكينة والحب والمرح ؟ .. اننى لم أحس أبدا بما يقولون عنه مرح الشباب ، ولم أنعم أبدا بهذه الرحلة الجميلة .. لقد أصبحت أحس بالفراغ يعتصر أيامى ، أعيشها باللحظات ، كل لحظة تمر بى أشعر بها .. أشعر كأننى أمس الزمن بيدى وأراه بعينى ، ولم أعد أحب الحياة . فما أحقر النفس وما أحقر الحياة اذا تجردت من الحب .. من العطف ..

من الأمن والاستقرار ، ولكنى لم أفطن الى تلك الحقيقة الا بعد فوات الأوان ، انه مصيرى فى هذه الحياة وليس هناك مفر من مواجهة المصير ، وقبول الواقع الأليم ، وهل هنـاك مفر من القدر ؟ .. ان الحياة لغز غامض ، وعلينا أن نتقبل أحكامها .. يا لقسوة هذه الوحدة التى كتب على أن أعيش حبيسة سجنها فى أجمل سنين عمرى ، انها ليست الوحدة التى تقطعنى وتبعدنى عن الناس ، وانما الوحدة التى استشعر قسوتها ومرارتها فى أعماق نفسى ..

ظللت مدة طويلة وأشباح تلك الأفكار الرهيبة تراود مخيلتى.. عشتها فى حرب مع القلق والخوف واليأس ، وكانت النتيجة هزيمتى ، ووجدت أنه من المستحيل اقناع نفسى بأنه لا ينقصنى شىء ، فالمرأة هى المرأة دائما مهما حاولت التنكر لطبيعتها ، فلابد أن يأتى اليـوم الذى تشعر فيه بحـاجتها الى القيـام بدورها الطبيعى فى الحياة ، والى خلع القناع المزيف الذى تحاول أن تخدع به الناس عن حقيقتها ..

— ١٥ —

لم أجد وسيلة للتخلص مما اعترانى سوى أن أذهب الى أهلى وبلدى لأمضى وقتا بين أحبابى لعل نفسى تهدأ حينما أرى وجوها يعوضنى حنانها عما افتقده ..

لم أكن أذهب الى « طنطا » الا فى مناسبات متباعدة ، ولذلك كنت كلما ذهبت أجد أن عدد أطفال أختى قد زاد عما قبل ، وقد أصبح لها الآن ثلاث فتيات وولدان ، وكلهم يمتازون بالجمال والوداعة ، مثل والديهم أما أكبرهم فهى « أشجان » التى صارت فتاة يانعة تطل على السنة الثالثة عشرة من عمرها ، وهى أحب بنات أختى الى قلبى لأنى شهدت يوم خروجها الى الوجود ، ولأنها أيضا قد سميت باسمى ..

لاحظت أو هكذا خيل لى أن أختى « آمال » وأمى تنظران الى نظرة غامضة فهمت معناها فهى نظرة مملوءة بالرثاء والعطف ، انهما تشفقان على وعلى الوحدة التى أعيش فيها ، وكثيرا ما كنت أحد البكاء فى طريقه الى عينى ، ولكنى قاسيت بكتمانه فى حلقى واخفائه عنهما .. لم أكن أريد أن أشعرهم اننى أقاسى أو أتألم ،

فأنا التى كتبت مصيرى بيدى ، ولم يحملنى أحد على اختيار ذلك الطريق الذى سرت فيه ، وعلى هـذه الوحدة التى أصبحت تلازمنى وألازمها .. ليتنى أستطيع أن أرجع الى الوراء عـدة أعوام حيث كنت تلميذة صغيرة فى المدرسة الثانوية ، وكنت أنظر للحياة نظرة وردية محفوفة بالبهجـة والشـموع .. ليتنى أستطيع أن أعود الى ذلك العهد الجميل . فلو عدت لما فكرت أبدا فى أن أترك بلدى التى نشأت فيها ، ولما سمحت لقدمى أن تطأ أى مكان آخر ، ولرضيت بحياة هادئة مستقرة بعيدا عن ضوضاء المدنية ، وتيارها العاصف المخيف ، ولكن لا فائدة من التمنى ، فان الماضى لا يعود أبدا ، بل يبعد ويبعد مع السنين فيطوى معه آمالنا وأحلامنا وأمانينا ، ولا يترك لنا سـوى الذكرى الأليمة والندم على الأشياء التى أخذها منا ..

لم يكن هناك سوى أبى .. الشخص الوحيد الذى كان وجهه ينم عن سعادة بالغة ، كان فخورا بى سعيدا لما وصلت اليه ، فلقد كان يعدنى لهذا المستقبل ، وكان يتابع أخبار تجاحى فى سرور عظيم .. جعلنى أحس بجانبه ببعض الطمأنينة التى أفقدنى اياها تلك النظرات الحيرى من حولى ..

لفت نظرى طفل صغير فى حوالى التاسعة من عمره كان يلهو مع أطفال أختى ، رأيت فى وجهه ملامح محببة الى نفسى ، وجدت

فيه صورة مصغرة لحبى الأول وفعلا كان حدسى صحيحا عندما علمت انه ابنه .. ابن « على » .. أخذت الطفل بين يدى أقبله وأحنو عليه ، فلقد ذكرتنى عيناه بأيام سعيدة حركت فى صدرى أجمل الذكريات ، أخبرنى الصغير أن له أختين تصغرانه وقد فهمت « آمال » ما كنت أريد معرفته بأسئلتى للصبى ؛ قالت لى ان « على » قد أصبح الآن مديرا لشركة هندسية ؛ وأن زوجته « ليلى » قد توفيت وهى تضع طفلها الثالث ، ورأت « آمال » فى عينى سؤالا حائرا فقالت لى وكأنها قد فهمت ما دار فى ذهنى ، انه لم يتزوج منذ وفاة زوجته ثم استطردت قائلة انه سيحضر فى المساء لاصطحاب الصغير .. راودتنى شتى الخواطر والأفكار فى لحظة واحدة أحسست فيها أنه لا يزال هناك شعاع ضئيل من الأمل .. شعرت بالحب الذى كان مدفونا فى قلبى يتدفق مرة واحدة عند سماعى لاسمه يتردد فأيقنت اننى لا زلت أحمل له كل الحب برغم تلك الأعوام الطويلة التى كنت فيها بعيدة عنه ، ووجدت نفسى أحن وأتوق الى رؤيته بعد هذه الفرقة ، وأرى ما فعلته به الأيام ، وهل غيرت من طبيعته فأصبح انسانا آخـر صارما ، أنهكه العمل بعد أن أصبح مديرا لشركة كبرى ، أم أنه لا يزال كعهدى به رقيقا طيبا سمح النفس .. قررت أن ألقـاه عندما يأتى لأراه وأرى كيف سيكون شعوره عندما يجدنى

أمامه .. لابد أنه يذكرنى ، وربما كان مثلى يحمل لى حبا مدفونا لم تطوه الأيام ولا الأحداث .. ارتديت أجمل ملابسى ، ورتبت شعرى بنفس الطريقة التى كانت تعجبه وزينت وجهى بابتسامة مشرقة ، ووقفت أمام النافذة أنتظر فى لهفة وشوق وقلق .

وأخيرا رأيته قادما من أول الطريق فعرفته بقلبى قبل أن أعرفه بعينى ، وكلما اقترب من المنزل كلما أحسست بأنفاسى تتلاحق وأطرافى ترتعش وحركاتى تضطرب .. حاولت جاهدة أن أتماسك وأن أصطنع الهدوء ، ولكن ضربات قلبى كانت تهزنى هزا .. كنت أريد أن أكون أول من يقابله ، ولكنى جبنت وخفت من ذلك الموقف .. أخذت أصارع ذلك الشعور الذى يدفعنى الى الاختفاء والهروب .. ثم سمعت صوته بالخارج ، فأصغيت اليه بكل جوارحى ، ووجدته ينساب فى هدوء وثقة ، فسرت نبراته فى دمى وألهبت شعورى ، وهزت كل كيانى ، وأحسست بشوق زائد لا يقاوم دفعنى الى الخارج بدون أن أشعر ، ووجدت نفسى أمامه ، وتلاقت نظراتنا لأول مرة بعد طول غياب وفرقة طويلة .. كانت لحظة رهيبة راودتنى فيها عدة خواطر دفعة واحدة وأنا أتأمل وجهه .. لقد خفت أن يكون حاقدا على ، أو متأثرا لما حدث منى فى الماضى ، أو ربما كان قد نسى كل شىء عنى تماما فى الوقت الذى آمل فيه أن يجتمع شملنا مرة أخرى .. وسمعته

ينطق باسمى بصوت خافت والدهشة البالغة مرتسمة على وجهه كأنه لا يصدق أنه يرانى .. وقفنا برهة هكذا يحدق كل منا فى الآخر ، ولم يفه أحدنا بكلمة واحدة ، ولكن نظراتنا كانت أقوى تعبيرا من الكلام .. كان فيها عتاب منه ، واستغفار منى ، ورغبة من كلينا .. وعاد الحب الدفين أقوى مما كان ، وأعنف وأصدق .. وجـدته كعهدى به من قبـل طيب القلب ، متسـامحا عطوفا ولم يذكرنى أبدا اننى تنكرت له ، ورفضت حبه فى يوم من الأيام ، بل أخجلنى قوله انه لا يزال يحمل لى أجمل الذكريات ، وأن مكانتى فى قلبه لم تزلزلها الأحداث ولا الأعوام ، مما أشعرنى بضآلتى ، وبهول الخطأ الذى ارتكبته فى حقه .. رجوته أن يعطينى فرصة أخرى أكفر فيها عن ذنبى ، وعاهدته على أن أكون أما لأولاده الثلاثة وخادمة لهم طيلة حياتى .. أحسست بجانبه اننى عدت الى الوراء مرة أخـرى .. عدت تلك الفتاة البريئة الخجول التى تحب من أعماق فؤادها حبا طاهرا عفيفا ملأ عليها حياتها ، ونسيت أو كدت أنسى أياما بل أعواما طويلة قاسية رهيبة ، ونسيت كل ما كابدته من حرمان ووحدة وألم .. أصبحت تغمرنى سعادة بالغة ، فتمنيت أن أرى جميع من حولى يشعرون بها مثلى ، ويلمسونها كما ألمسها ، حتى أحس أنهم يشاركوننى فى فرحتى ..

اتفقت مع « على » على أن يتم زواجنا فى هدوء ، بدون أى ضجة وكانت هذه رغبة كلينا .. وقضيت أسبوعا أعد فيه وأجهز ما سأحتاجه بعد الزواج ، وأدخلت بعض التجديدات على الشقة التى يقيم فيها «على» مع أبنائه ، واشتريت عدة أثواب رائعة ، كما لم يفتنى أن أتحف أطفاله الصغار بالهدايا واللعب الكثيرة حتى أجعلهم يحبوننى ويأنسون لى عندما أذهب لأعيش بينهم .. وقد قررت أن أترك العمل ومتاعبه نهائيا لأظل بجوار زوجى وشريك حياتى أكرس حياتى لأعوضه عما فات ..

اتفقت معه على أن أذهب اليه فى الشركة التى يديرها لنذهب معا الى الصاغة .. أسعدنى أن أذهب اليه لأراه جالسا أمام مكتبه ، وأرى كيف يخشاه ويحترمه الموظفون ويمتثلون لأوامره ، أردت أن أرى ذلك ، كما أردت أن أسمع بأذنى الجميع هناك يهمسون بأننى زوجة المدير .. سرت فى طريقى اليه ، وأنا فى فيض من الغبطة ، وقد خيل الى أننى أسمع عدة بلابل تغرد بأصوات كالموسيقى المرحة معبرة عن اختفاء الأحزان ، وأن جنتى على الأرض قد بدأت ، وأن السماء قد استجابت لدعواتى بعد أن سمعت زفرات قلبى ..

وصلت الى الشركة ، ودلفت الى الداخل مسرعة كأننى طفلة صغيرة سعيدة ، وسرت فى ممر طويل به حجرات من كل جانب

الى أن رأيت غرفة المدير ، ففتحتها بهدوء ، بدون أن أحدث أى صوت حتى أجعله يفاجأ بى أمامه ، ولكن بدل أن أفاجئه ، وجدت اننى أنا التى فوجئت .. لقد رأيت أمامى مالم آكن أحب ولا أتوقع أن أراه .. لقد رأيت الماضى الذى ظننت اننى قد هربت منه ودفنته الى الأبد .. ما أشد سخرية الأيام ، وما أعظم فلسفة القدر .. لقد رأيت الشخص الذى تحطمت على يديه سعادتى ، والذى كان سببا فى شقائى جالسا أمامى ، انه « عصام » ذلك الانسان الذى أمقته من كل قلبى ، لقد كنت أتمنى أن أرى الموت ، ولا أرى ذلك الانسان الثعبان الذى يعيش لينفث سمومه بين الناس .. ما الذى أتى به الى هنا ؟ .. وددت لو كان معى مسدس وقتها ، لكنت أرديته قتيلا فى الحال : كان احساسى احساس امرأة تريد أن تدافع عن حياتها عن سعادتها ، وعن مستقبلها .. لقد ألجمت الدهشة لسانى وقيدت المفاجأة أفكارى ، وشعرت بضباب كثيف يحيط بعقلى فلم أعرف ماذا أفعل .. لو أنى قابلته فى أى مكان آخر لما تولانى الرعب هكذا ، ولكن وجوده فى ذلك المكان بالذات هو الذى كاد يفقدنى صوابى ، ترى ما هى صلته بعلى ؟ .. وسمعت « على » يقدمه لى قائلا :

— ابن صاحب الشركة وصديق عزيز منذ أيام الدراسة !

اذن انه على صلة وثيقة بعلى ، رميته بنظرة حادة تجمع فيها كل

ما أشعر به نحوه من حقد .. غادرت الغرفة فى غفلة من « على »
بل غـادرت الشركة كلها ، وأنا فى حـالة يأس واضـطراب
شديدين ، لا أدرى ماذا أفعل اننى أعرف « عصام » وأفهمـه
جيدا .. أعرف أخلاقه التى لن تمنعه من أن يشهر بى ، خصوصا
بعد أن عرف اننى سأصبح زوجة « على » .. انه انسان لا خلاق
له على الاطلاق ، وليس له صديق .. أعرف انه لن يصمت أبدا ..
بل انه لن يتورع عن أن يسلك معى طريقا خبيثا .. ان ظهـور
« عصام » فى حياتى مرة أخرى معناه تضاؤل الأمل فى حياة آمنة
مستقرة . انه انسان وضيع حقير ، ولن أرضى أبدا أن أظل تحت
رحمته ، كما أنى لا أستطيع أن أدفع ثمنا لصمته .. ان « طنطا »
ليست بلدا كبيرا كالقاهرة ، وكل كلمة تقال هنا تنتشر كالبركان
الهائل .. اننى من عائلة معروفة لم تمسها أية شائبة ، كيف أسمح
لنفسى بأن أسىء الى أعز النـاس وأحبهم الى ، وهـل أنسى
ما سيصيب « على » أحب انسان الى قلبى من جراء ما سيحدث ..
اننى أكاد أجزم أنه لن يتخلى عنى أبدا مهما حدث ومهما سمع
انه يفهمنى جيدا ، ويحبنى حبا يفوق كل وصف ، ولن يسمح
لأية وشاية أن تقف بيننا .. ان قلبه كبير ، ونفسه متسامحة ،
ولكننى نست أنانية الى هذا الحد ، حتى أطلب سعادتى دون نظر
الى أى اعتبار آخر ..

لا أستطيع أن أصف شعورى تماما .. أحس اننى تائهة وسط غابة مظلمة ولا أعرف أى طريق أسلكه ، لقد عدت انسانة يائسة محطمة النفس بعد أن أيقنت أن القـــدر يريد لروحى التعسة ، أن تظل تتعذب وتشقى الى ما لا نهاية .. لقد كتب على أن أودع أحلامى الجميلة التى تبسمت لى بعد حرمان طويل .. وددت أن أرحل بدون عودة الى مكان بعيد عن الأنظار أقضى فيه ما تبقى من أيام حياتى الشقية .. .أريد أن أذهب الى حيث لا أرى أحدا ، ولا يرانى مخلوق ، أريد أن أسكن الى نفسى وأعيش مع الماضى فى تلك اللحظات التى كنت فيها سعيدة ، فالتهم هده الذكريات .. آه لو كنت أعلم بما يخبئه لى القدر ..

كتبت له رسالة تتكون من كلمات قليلة .. كتبتها وأنا أشعر بقلبى ينزف دما ، قلت له اننى قد اضطررت الى الانسحاب من حياته حتى لا أسبب له متاعب هـــو فى غنى عنها ، ورجوته أن يسامحنى ، وأن يذكرنى بالخير دائما .. قررت أن أعود الى القاهرة لأواجه وحدى أقسى ما يمكن أن تواجهه امرأة فى حياتها ، لأترقب ما يخبئه لى الغد فى طياته مما قد أنوء به ، وماذا أنتظر من الغد بعد أن ماتت سعادتى ودفنتها بيدى .. سأعيش بعيدة عن « طنطا » .. بعيدة عن هذا البلد الذى نعمت فيه وشقيت ، والذى شهدت به ألوانا من السعادة والشـــقاء ، ومن اليأس والرجاء .. لقد ضاع كل شيء ، ولم يبق لى سوى الوحدة والألم والذكريات ، ولذة التضحية .. اننى فتاة شقية أتمنى أن ينتهى شريط عمرى لينقذنى ويريحنى سريعا من أشجانى .

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر


Bibliotheca Alexandrina
0668663